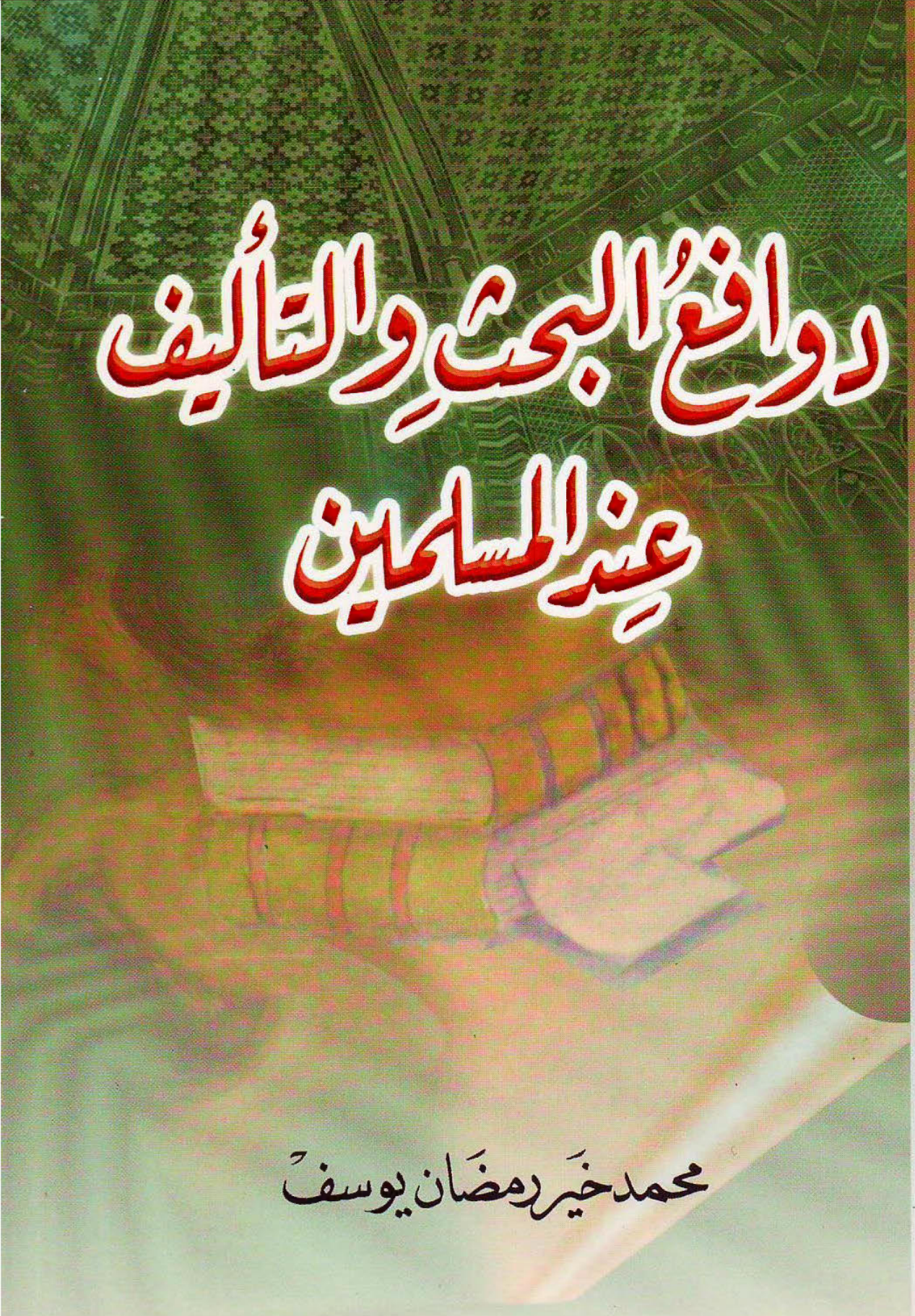

دوافع البحث والتأليف عند المسلمين

محمد خير رمضان يوسف

دار ابن حزم

دوافعُ البحثِ والتأليف عند المسلمين

محمد خير رمضان يوسف

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

ISBN 9953-81-211-X

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366

هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)

بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

مقدّمة

كان الدافع إلى تأليف هذا الكتاب، هو ما قرأته من دافع كاتبٍ لتأليف كتابه!

لقد دُهشت حقّاً... وأنت ستدهش إذا عرفت ذلك!

لعلك سمعت بكتاب «**حياة الحيوان الكبرى**» للدميري... فهل عرفتَ سرَّ تأليفه له؟

وقبل أن أحيطك به علماً، لأنك مثل غيرك لا تقرأ المقدّمات، ولا دواعي تأليف الكتب، فإن هذا المؤلف فقيه شافعي جليل، ومحدّث متمكّن، شرح سنن ابن ماجه... كما برع في التفسير والأصول..

وكتابه المذكور صدر في غير تخصُّصه، وجاء «من غير ميعاد» كما يقال!

لكنه حقّاً كتاب رائع ومشوّق ومفيد جدّاً، يجمع بين العلم والفقه والخبر والقصّة والشعر، وهذا كله يشجّع على القراءة والاستفادة، فكلٌّ يجد فيه ما يريد!

والآن... ما الذي دفع هذا العالم المحدّث إلى تأليف كتاب ضخم في الحيوانات وأسمائها وسلوكياتها وحكم الشريعة في لحومها وما ورد فيها من أخبار وقصص وحكايات؟

كان السببُ مجلساً علمياً جرى فيه حديث عن بعض الطيور والحيوانات، فصار كلٌّ يدلي بدلوه ويفصح عن رأيه، وامتدَّ الحوارُ وتعاظم النقاش ليتحوَّل إلى جدال وسجال، وكادت أن تنشب حربٌ كحرب البسوس!!

وقد وصف المؤلف هذا المجلس وما دار فيه بأسلوب أدبي ساخر ومشوِّق، فكان مما قال: «وإنما دعاني إلى ذلك أنه وقع في بعض الدروس، التي لا مخبأ فيها لعطر بعد عروس، ذكرُ مالك الحزين والذيخ المنحوس، فحصل في ذلك ما يُشبه حرب البسوس، ومُزج الصحيح بالسقيم، ولم يفرَّق بين نسر وظليم، وتحككت العقرب بالأفعى...».

وذكر في تعريف «مالك الحزين» أن ضَبْطَهُ كان من جملة الأسباب الباعثة إلى تأليفه، خوفاً من تصحيف لفظهِ وتحريفه!

لقد ابتسمتُ بعد قراءة هذه المقدمة الجميلة وتعجبت، ودعاني هذا إلى قراءة المزيد من مقدِّمات السلف رحمهم الله، لمعرفة المزيد من أسباب تأليفهم الكتب، فكنتُ أقرأ ما لا يقرأه الناس، وكانت رحلة جميلة ورائعة، لا تقلُّ روعة عن قصص الرحلات والاكتشافات!!

وكان هذا الكتاب أحد ثمراته والحمد لله.

الأمر الآخر الذي يُستفادُ من هذا هو المقدِّمات القصيرة التي تتميَّزُ بها كتب السلف، بعكس المقدِّمات المعاصرة، التي تطيل الكلام وتكرِّره، مع أسلوب جاف ونكهة أكاديمية منفِّرة، حتى يملَّها القارىء من أول الكتاب ويضجر منه؛ ولذلك صار الناس في هذا الزمان لا يقرأون المقدِّمات الطويلة، إلا إذا كانت طنطاوية!

وسيجد القارىء بعد هذه المقدمة فصلاً تمهيدياً عن أسباب التأليف وما يشاكلها، ومزيَّة ما كتبت، فإن القصد هو بيان أسباب التأليف وليس ذكر أنواعه. والله الموفِّق.

محمد خير يوسف

١٤٢٦/٢/٣هـ

تمهيد

منذ قرون وحتى عصرنا هذا والناس يردِّدون مقولة ابن حزم الظاهري في أنواع التأليف التي جعلها سبعة، وزاد بعضهم عليها واحداً فصارت ثمانية! وهي:

- إما شيءٌ لم يُسبق إلى استخراجه فيستخرجه.
- وإما شيءٌ ناقص فيتمِّمه.
- وإما شيءٌ مخطَأ فيصحِّحه.
- وإما شيءٌ مستغلق فيشرحه.
- وإما شيءٌ طويل فيختصره، دون أن يحذف منه شيئاً يُخلُّ حذفه إياه بغرضه.
- وإما شيءٌ مفترقٌ فيجمعه.
- وإما شيءٌ منثورٌ فيرتِّبه.

وزاد عليها أبو حيّان في شرح التسهيل: أو مبهم فيعيَّن.

وأظنه يجيء مع البند الرابع الذي ذكره ابن حزم؟

وأعاد ذكر هذه السبعة بأسلوب آخر ابن خلدون في مقدِّمته، كما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، والمحبي في خلاصة الأثر.. وغيرهم... ونظمها بعضهم في أبيات فقال:

ألا فاعلمنْ أن التآليف سبعة ... لكلِّ لبيب في النصيحة خالصِ
فشرحٌ لإغلاقٍ وتصحيح مخطىء ... وإبدالُ خَبْرٍ مقدَّم غيرِ ناكصِ
وترتيبُ منشورٍ وجمعُ مفرَّق ... وتقصيرُ تطويلٍ وتتميمُ ناقصِ

والذي يتوضَّحُ للقارىء من هذا أنه تعدادٌ لأنواع التأليف، أي أقسامه، وأشكاله.

أما ما نحن بصدده في هذا الكتاب، فهو ذكرُ أسباب التأليف ـ أي دوافعه وبواعثه وأغراضه.

ويدخلُ في هذه الأسباب بعضُ ما ذكر من أنواعه، وقد يدخل فيه كلها إذا كان لها صلة بالأسباب.

وإذا كان ابن حزم قد شدَّد وأكد أنه لا يخرج أحد عن هذه الأنواع السبعة في أيِّ علم كان، فإن الأسباب تزيد وتُستحدث، ولا تتوقف حتى على هذه الأنواع الأربعين التي ذكرتها.

وأعني ما كتبه السلف، من التراث الإسلامي، ما قبل سقوط الخلافة الإسلامية، أعادها الله عزيزة كريمة مهابة.

ويذكر المقريزي في مقدمة خططه أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي:

الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمرتبة، وصحة الكتاب، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه.

والذي يهمُّنا منها في هذا الكتاب هو «الغرض»، الذي فسَّره صاحب «كشف الظنون» بأنه «الغاية السابقة في الوهم، المتأخرة في الفعل»[1].

---

(١) ذكره مع باقي الرؤوس الثمانية بعد ذكر أنواع التأليف في ج١، ص٣٦. وكلام ابن حزم موجود في كتابيه «التقريب لحد المنطق» و«رسالة في فضل الأندلس» اللذين جمعهما إحسان عباس مع غيرهما له في «رسائل ابن حزم الأندلسي» ١٨٦/٢، ١٠٣/٤.

قلت: الغرض هو الهدف والمقصد، ولعله يدخل فيه السبب أيضاً، أما الغاية فقد لا تكون ظاهرة، وقد لا تذكر.

وقد صار «سبب اختيار الموضوع» أمراً مطلوباً في البحوث والرسائل الجامعية، فيذكر الباحث السبب والدافع لاختيار موضوعه، ولو نطقت جوارح بعضهم لقالت غير ذلك!

ثم إنني لا أعرف أحداً أفرد هذا الموضوع ـ كما بحثته هنا ـ في كتاب، قديماً وحديثاً، وإذا وُجد فلم أطلع عليه، لكن أشيرُ هنا إلى رسالتين تتلبَّسان بهذا الموضوع:

ـ **أولاهما**: رسالة «**أسباب التأليف**» للشيخ يوسف النبهاني (ت ١٣٥٠هـ) رحمه الله، وقد ألحقها بالطبعة القديمة من كتابه الكبير «جامع كرامات الأولياء» وتقع في بضع صفحات، ويعني بها مؤلفاته، وقد جعلها في ثلاثة أقسام:

الأول: في أسباب التأليف، وبآخره رسالة السيوطي «التعريف بآداب التأليف».

والثاني: في ذكر رسائل العلماء التي وردت إليه، وهي بمثابة تقاريظ.

والثالث: في ذكر أسماء مؤلفاته، والجواب لما تعرَّض لها به بعض النقاد.

وهو بحث لطيف فيه تواضع جمّ، يذكر فضل الله عليه، وأسباب انخراطه في سلك التأليف والكتابة الإسلامية، وليس هو من باب تحليل الأسباب التي دفعته إلى التأليف في كل موضوع أو كتابٍ ألَّفه، كما هو في بحثي هذا.

ـ **أما الرسالة الثانية**: فقد صدرت بعنوان «**الأربعون من أسباب التآليف وأسرار التصانيف**» لمؤلفها الأستاذ زيد بن محمد الرماني، وقد طبعته مدار الوطن بالرياض سنة ١٤٢٤هـ، وتقع في (١٠٤ص).

وفيه نقل ما ذكره بعض المؤلفين من أسباب تأليف كتبهم، وقد

بلغت (٩٧) كتاباً، نقل (٤٤) كتاباً[١] منها من «موسوعة الكتب النادرة» التي وفقني الله لإصدار سبعة أعداد منها، وما زالت ثلاثة منها مخطوطة، ولم يشر الكاتب الكريم إلى أنه نقل هذا كله مني، ويبلغ نصف الكتاب أو يزيد، لكن بيَّن في المقدمة أنه استفاد من هذه الموسوعة وغيرها من كتبي، وصدق، فقد استفاد منها في غير كتابه هذا أيضاً، وقد اطلعتُ على بعضها، فلم يكن يشير إلى المصدر[٢]، ولو أنه وثَّق وبيَّن بوضوح، لكان أرفع لقدره وأنبل لمجده، ولعله يفعل هذا في طبعات قادمة مما أصدره إن شاء الله، فإن المؤمن إذا ذُكِّر نفعته الذكرى، وخاصة أنه سأل الله تعالى في المقدمة أن يكون عمله خالصاً لوجهه الكريم، والإخلاص أرفع درجات الصدق في العبودية... حفظه الله وسدَّد خطاه.

هذا وليس في الرسالة المذكورة أي تحليل أو ترتيب لأسباب تأليف

---

(١) جعل «الأربعين كتاباً» في الأول، بينها (٢٠) كتاباً من موسوعتي النادرة، وجعل الباقي «خاتمة المطاف» (عن كتبهم قالوا) وفيه ذكر (٢٧) كتاباً، نقل (٢٣) منها من الموسوعة المذكورة! وما أشار إليه من استفادته من بحث «مقاصد التأليف عند المسلمين» فهو لا يتجاوز ال (٦) صفحات، وقد جعلها في مقدمة الكتاب، وهو بحث منشور في مجلة «عالم الكتب» السعودية، عدد الربيعين والجماديين ١٤٢٣هـ، ص٥١٦ ـ ٥٢١، ولم يوثِّق ما نقل منه أيضاً، ولا ذكر المصدر وما إليه! ومَنْ مِنَ القراء كان يعرف صنيعه هذا لو لم أذكره، هنا وفي الهامش التالي، عدا ما لم أذكره، وما لم أطلع عليه؟ وقد ذكر أنه «المستشار الاقتصادي وعضو هيئة التدريس بجامعة الإمام في الرياض». و«المستشار مؤتمن»!

(٢) كان آخرها ـ وهذا الكتاب ماثلٌ للطبع ـ كتابه «من بساتين التراث» الذي أخذ جلَّهُ ـ وكدتُ أن أقول كلَّه ـ من تلك الموسوعة، ولم يُشرْ إليها، لا في المقدمة، ولا في الهوامش، ولا في المراجع، بل ذكر في آخر الكتاب عناوين الكتب التي عرضتها فيها، وأضاف إليها عدة عناوين أخرى.
وما كنتُ أنكر عليه كلَّ هذا لو أشار إلى المصدر، فالعلم أمانة. وكما أن الإسناد من الدين، فإن إسناد الفضل إلى أهله، والتوثيق العلمي هو من الدين أيضاً، وإلا فما معنى الأمانة؟! وهذا الذي نقله كان عليه أن يسنده إلى من أخذ منه، وما في هذا من منقصة، بل هو دلالة فضل وأمانةٍ وصدقٍ وعدالة، وهو من صفات المسلم الأمين الملتزم.

الكتب كما ذكرتها هنا، وإنما هو مجرَّد نقل ما قاله المؤلف من سبب تأليف كتابه في مقدِّمته كما دوَّنته في هوامش الكتب التي عرضتها في الموسوعة المذكورة. ويبدو أن همَّهُ من ذلك هو إيرادُ ما يلفت النظر من أسباب التأليف، على نوعية الكتب «النادرة» التي أخذها من كتبي السابقة.

❋ ❋ ❋

لقد تابعتُ مئات مقدِّمات كتب التراث الإسلامي لأتعرَّف الأسباب التي دفعت مؤلفيها إلى تأليف كتبهم، وذكرت من بينها نحو أربعين سبباً، جمعتُ بعضها إلى بعض لتشابهها، وفرَّقتُ بعضها عن الآخر لتميُّزها، ودمجتُ مع بعضها أنواع التأليف لغرض في ذلك بيَّنته.

وقد وضح هنا أن عملي يتعلق بمعرفة أسباب التأليف فقط، سواء أكان هذا السبب مباشراً، أو غير مباشر، وكما يذكره المؤلف ـ أو يُستنتجُ من ذلك ـ ولو لم يذكره.

وقد بيَّنتُ بعد هذا التمهيد أن هناك مؤلفين لا يذكرون سبب التأليف أصلاً، وهذا واردٌ في وقتنا أيضاً، بل هو كثير في الكتب، ولا بأس من ذلك، فلا داعي لذكره في كل مرة، والمهمُّ هو تقديمُ موضوعٍ مفيد ومناسب للقارىء أياً كان سببه.

وفي أدب إسلامي جمّ، كان كلُّ من يقدِّمُ لكتابه يزيِّنه بالحمد والثناء لربِّ العالمين، والشهادة بالإيمان به سبحانه لا شريك له، وبنبوَّة نبيِّه محمد ﷺ ثم الصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه.

وكان المنهج في هذا الكتاب أن جمعت بين الدراسة النظرية والتطبيقية والتحليلية والاستنتاجية، فقد بوَّبتُ وقسمت، وأوردتُ لكل سبب من أسباب التأليف مثالاً أو اثنين أو أمثلة عديدة، لعلوم وفنون مختلفة من التراث الإسلامي، وقبل الأمثلة تقديم موجز بما يرمي إليه السبب أو الدافع وكيف يكون، وغالباً ما أستنتجه من الأمثلة والنماذج.

ولم أرد أن يكون بحثاً أكاديمياً منهجياً في فصوله وأبوابه وخواتيمها،

ولا حتى في جوانب من معالجتها، التي قد يُطلبُ من بينها أثر هذه الأسباب ونقدها ومدى واقعيتها، ثم البحث عن نتائجها العلمية والحضارية، ومن بينها أسباب ترجمة كتب الفلسفة والمنطق والطب والأخلاق من اليونانية، ومدى التفاعل معها... وما إلى ذلك.

لقد أردتُ أن أقدّم مادة تاريخية واقعية مستمدة من أسباب التأليف عند الأفراد في تاريخنا الإسلامي المجيد، وهم يشكلون الجماعة أو المجتمع الإسلامي، الذي يشكل نواة الأمة، في إيمانها النابض وحركتها العلمية الفاعلة.

وأشير أخيراً إلى أن هذه الأسباب هي غير «الغاية» التي يرمي إليها المؤلف من وراء تأليفه.

فالغاية في كل أعمال المخلصين هي طلب رضا الله سبحانه، أو طلب الأجر والثواب منه سبحانه.

أي أن الغاية قد تكون هي السبب غير المباشر والأساسي في العمل، ولكنه لا يُذكر، فإذا ذُكر وحده كان سبباً وغاية معاً، كما يأتي في أمثلة عدّة.

ثم لخصت في رؤوس أقلام ما تفرّق من أسباب التأليف في الخاتمة، ليكون عوناً للقارىء على تجميع ما بُعثر، وتذكيراً بما كان، وتلخيصاً له.

والله من وراء القصد.

عدمُ ذكر السبب

ليس في كلِّ كتابٍ ما يفيد سببَ تأليفه، وفي بعضها لا تجدُ مقدِّمةً أصلاً، فيدخلُ كاتبُه في الموضوعِ مباشرة، وهذا يقودنا إلى تقسيم الموضوع إلى قسمين:

أولاً: ما ليس له مقدِّمة:

وكان هذا في بدايات التأليف خاصَّة، ومعظم المصنفات فيها عن السنن والآثار، فلا تجد لها مقدِّمات، كما في الصحاح، والسنن، وكتب الزهد والرقائق، التي جاء بعضها متأخراً كذلك، ومع ذلك لا يُقدَّم له بمقدِّمة.

- ومثاله «**كتب ابن أبي الدنيا**» المتوفى سنة ٢٨١هـ، وكذا «**الزهد والرقائق**» لابن المبارك، ولابن أبي عاصم، و«**مكارم الأخلاق**» للخرائطي، وكتاب «**العلل ومعرفة الرجال**» لابن حنبل.
- ومثاله ما جاء في أول «**السيرة النبوية**» لابن هشام: قال أبو محمد عبدالملك بن هشام النحوي: هذا كتابُ سيرة رسول الله ﷺ. ثم بدأ يسردُ النسب الزكي للرسول ﷺ.
- وبداية «**الطبقات الكبرى**» لابن سعد: ذكرُ من انتمى إليه رسولُ الله ﷺ.
- وليس لكتاب «**الأمّ**» للإمام الشافعي رحمه الله مقدِّمة.
- وكذا الأديب أبو منصور الثعالبي، ذكر «الباب الأول» في أول كتابه «**الشكوى والعتاب**».

- وللخطيب البغدادي كتاب بعنوان «**البخلاء**» جمع فيه الأحاديث والآثار والحكايات والأشعار كلها بسنده إلى من روى عنهم، ولكنه لم يكتب له مقدّمة، بل ذكر الأحاديث الواردة في البخل مباشرة.

- وكذا فعل الجمّاعيلي في كتابه «**الاقتصاد في الاعتقاد**»، فقال بعد الحمدلة: اعلم وفقنا الله وإياك... أن صالح السلف وخيار الخلف وسادة الأئمة وعلماء الأمة اتفقت أقوالهم وتطابقت آراؤهم على الإيمان بالله.

- ولا مقدّمات لـ«**أسرار الحكماء**» لياقوت المستعصمي. ولا لـ«**زهرة الآس في بناء مدينة فاس**» للجزنائي، ولا لـ«**درء تعارض العقل والنقل**» لابن تيمية...

مما يعني أن عدم كتابة مقدمة للكتاب لبيان سبب تأليفه كان هو الغالب أو المنتشر أولاً، وتابع ذلك بعض المؤلفين في قرون تالية دون رابط أو تعليل.

ثانياً: ما له مقدّمة وليس في ذكر السبب:

وفيها غالباً ذكرُ موضوع الكتاب، أو سردُ أبوابه وفصوله، أو بيان عمل المؤلف وجهده في جمعه وتدوينه، وعدم التعرُّض للباعث على تأليفه.

- فكان أول ما قاله الحافظ ابن السني في كتابه «**القناعة**»: هذا كتابٌ ذكرتُ فيه فضل القناعة وصفتها.

- ولم يذكر الخطيب البغدادي سبب تأليف كتابه «**تاريخ بغداد**» أو «**تاريخ مدينة السلام**»، بل دخل في الموضوع مباشرة بعد الحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، فقال: هذا كتاب تاريخ مدينة السلام وخبر أبنائها وذكر كبراء نزالها وورادیها وتسمية علمائها، ذكرت ذلك ما بلغني علمه وانتهت إليَّ معرفته...

- وجاء في مقدّمة «**أدب الندماء ولطائف الظرفاء**» لكشاجم: عنَّ لي أن

أجمع هذا الكتاب وأهذِّبه وأرتب مواضيعه وأبوابه، وأوفي كل معنى فيه حقَّه، وأضمَّ إلى كل شكل شكله.

- وقال ابن الجوزي في «**المجتبى من المجتنى**»: هذا كتابٌ اجتبيت فيه مما اجتنيتُ من علوم مختلفة، فهو أسهل متناولاً للحافظ، وأحسن روضة للناظر.

- وقال ابن قدامة المقدسي في أول كتابه «**المقنع**» في فقه الإمام أحمد: اجتهدتُ في جمعه وترتيبه وإيجازه وتقريبه، وسطاً بين القصير والطويل، جامعاً لأكثر الأحكام...

- وفي «**المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح**» دخل الدمياطي في بيان عمله مباشرة وقال: اعلم أنني ذكرتُ في الكتاب كلَّ عمل نصَّ النبيُّ ﷺ على ثوابه، دون ما فعله أو أمر به ولم يبيِّن أجر عامله في اكتسابه.

ويقوم المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت نحو **٩٣٠**هـ) بتأليف كتابه التاريخي الكبير «**بدائع الزهور في وقائع الدهور**» دون ذكر سببه كذلك، وقد يكون مثل هذا حباً في التأليف، وهوايته في التاريخ، فقال في سطور قليلة من بداية مقدمته:

«هذا جزء من كتابنا المؤلف في التاريخ... وقد أوردت فيه فوائد سنية وغرائب مستعذبة مرضيةً، تصلح لمسامرة الجليس، وتكون للمنفرد كالأنيس... وقد طالعت على هذا التاريخ كتباً شتى، نحو سبعة وثلاثين تاريخاً، حتى استقام لي ما أريد...».

أكثر من سبب!

وفي مقابل عدم ذكر سبب للتأليف هناك من يذكر له أكثر من سبب!

فقد يرى الكاتب أن الحديث قد تشعَّب به وأدَّى إلى تناول موضوعات جديدة، أو وقف على أمور لها ارتباط بالموضوع الأصل من وجوه، فحلَّل ومحَّص وتوصَّل إلى نتائج جديدة زيادة على ما خطَّط له. والمقدِّمات تُكتبُ بعد الانتهاء من التأليف وليس قبله، فقد يكون السبب الأساسُ هو الباعث الأول على التأليف، وسائر الأسباب تأتي تبعاً..

- وقد ألف الثعلبي (ت ٧٠١هـ) تفسيره الجليل «**الكشف والبيان عن تفسير القرآن**» رغبة في ثواب الله، وشكراً له سبحانه؛ لأن شكر العلم نشره، وزكاته إنفاقه. كما ذكر أنه جمعه نزولاً عند رغبة علماء وطلبة علم الذين ألحوا في الطلب عليه لتأليف تفسير جامع مهذب معتمد. وقصد استنباط شيء كان مغفلاً، أو جمعه إن كان متفرقاً، أو شرحه إن كان غامضاً... أو إسقاط حشو وتطويل، مع حسن ترتيب وتنسيق.

- ويذكرُ أحمد بن حمدان النمري (ت ٤٣٢هـ) عدة أسباب لتأليف كتابه «**الرعاية الصغرى**» في الفقه على مذهب الإمام أحمد، منها:

- فتورُ الهمَّة عن التأليف في الفقه.

- وطلبُ الاختصار للتوصل إلى الأحكام.

- وضرورة الفقه للمجتمع الإسلامي.
- واستجابة لسؤال «من يعزُّ صدُّهم، ويكرهُ ردَّهم، ويشكر قصدهم».

● وذكر ابن الجوزي أنه أقدم على تأليف كتابه «**أخبار الأذكياء**» لثلاثة أغراض:

أحدها:

معرفة أقدارهم بذكر أحوالهم.

والثاني:

تلقيح ألباب السامعين إذا كان فيهم نوع استعداد لنيل تلك المرتبة. وقد ثبت أن رؤية العاقل ومخالطته تفيد ذا اللبّ، فسماع أخباره تقوم مقام إخباره...

والثالث:

تأديب المعجَب برأيه إذا سمع أخبار من يعسرُ عليه لحاقه.

● وذكر ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) الباعث من وراء تأليف كتابه التاريخي العظيم «**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**» بقوله:

- أما بعد، فلمّا كان لمصر ميزةٌ على كلِّ بلد بخدمةِ الحرمين الشريفين، أحببتُ أن أجعل تاريخاً لملوكها، مستوعباً من غير مَيْن، فحملني ذلك على تأليف هذا الكتاب وإنشائه.

- وقال قبله: ولم أقل كمقالة الغير: إنني مستدعى إلى ذلك من أمير أو سلطان، ولا مطَّلَب به من الأصدقاء والإخوان، بل ألفته لنفسي، وأينعته بباسقات غرسي، ليكون لي في الوحدة جليساً، وبين الجلساء مسامراً وأنيساً.

- وذكر قبله الفائدة والعبرة من كتابة سير الملوك والأمراء وكتابة التواريخ، وأنهاهُ بقوله: ليقتدي كلُّ ملكٍ يأتي بعدهم بجميل الخصال، ويتجنَّب ما صدر منهم من [اجتراح] المظالم وقبيح الفعال.

● وحكى العلامة الحسن اليوسي، المتوفى سنة ١١٠٢هـ، في كتابه المشهور «المحاضرات» أنه إذا كان المقصود من الأشجار ثمارها، فإن المطلوب من الأخبار أسرارها.

قال: وإنما حملني على الأخذ فيه أمور:

- منها التفادي والبطالة التي هي مدرجة الجهالة والضلالة.
- ومنها إفادة جاهل أو تنبيه غافل.
- ومنها تخليد المحفوظ لئلا يُنسى.
- ومنها استمطار علم جديد عند الاشتغال بالتقييد، فإن العلم كالماء نبّاع، وبعضه للبعضِ تبّاع.
- ومنها تعليل النفس ببعض الأُنس، فإن النفس ترتاحُ للإحماض وتستشفي بروحه من الإمضاض.

الإهداء

كان التأليف لأجل الحكام والولاة والوجهاء والأصدقاء موجوداً، وما زال.

وهو إما أن يكون بتكليفٍ من الحاكم أو الوالي نفسه، أو أن يقوم الباحثُ من عنده بتأليف كتاب مناسبٍ لميول الحاكم وحاشيته، فيهديه إليه أو إلى خزانته.

وقد يكونُ هذا إما شكراً لأياديه عليه، أو حبّاً فيه وفي سيرته، أو طلباً لمنصب أو مال، أو ما لا يُفصح عنه.

وغالباً ما يكون هذا في كتب الأدب واللغة والتاريخ، وبالأخص أخلاق الملوك والوزراء وآدابهم وسيرهم.

وكان هذا من دأب العلاّمة الثعالبي، وغيره من أدباء السلاطين. وفي مقدّمات كثير منهم ذلٌّ واستكانة، ووصف ومدح زائد، وكلمات خارجة عن الحدّ.

وقد تكون نتيجة بعضهم مأساوية فيُنكلُ به بعد إخلاص، لكيد حاسد، أو وقيعة نمّام، أو تغيُّر مزاج، أو تسلُّط حاكم جديد . . والله المستعان.

- ومن ذلك صنيع العلاّمة اللغوي علي بن عيسى الرماني، المتوفى سنة ٣٨٤هـ، فقد ألف كتابه «**توجيه إعراب أبيات ملغزة الإعراب**» إهداءً لحاكم أو وال، نظراً لاهتمامه بأهل العلم وتتبُّع آثارهم. . . «فيحصل منها الأنس عند الخلوة، والاعتماد بها على اجتذاب السلوة».

● كما يبدو من مقدمة كتاب «**فضل العطاء على العسر**» لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت ٣٩٥هـ)، أنه توجَّه به إلى أحد «الرؤساء»، وقد يكون رئيساً في قومه، أو وزيراً أو والياً، وأن ذلك قد يكون بطلب منه، فكتب إليه شأن مقدمة الرسائل الأدبية، حيث ورد في أوله: «كتب الشيخ أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل الأديب إلى بعض الرؤساء: جعل الله السيد في حيِّز السلامة ومحلَّة الشكر، كما آتاه من الفضل... ما تدانى دونه شأو الوصف والذكر... الجود ـ أيَّد الله السيد ـ إذا كان عن يسار وجِدَة وإثراء وسَعة، واجبٌ لا يَسَعُ الإخلال به...».

● و«**اتفاق المباني وافتراق المعاني**» صنَّفه سليمان الدقيقي (ت ٦١٤هـ) ليهديه إلى ابن القاضي الفاضل بهاء الدين أبي العباس أحمد (ت ٦٤٣هـ)، وكان كبير المنزلة عند الملوك، مثابراً على سماع الحديث وتحصيل الكتب.

وقد أثنى على أبي العباس هذا وبجَّله ثم قال: فحملتُ هذا المؤلف إلى خزائنه المعمورة بدائم عزِّهِ وبقائه، المبرورةِ بصالح ادِّخاره واقتنائه، تيمُّناً بانضمامه إلى حاشية مالكها وانتظامه في سلك عقود ممالكها...

● وذكر ابن مالك النحوي الشهير، صاحب الألفية، المتوفى سنة ٦٧٢هـ رحمه الله، أن الدافع لتأليفه كتاب «**إيجاز التعريف في علم التصريف**» هو لإهدائه إلى السلطان صلاح الدين، لتمكنه من هذا العلم وتحصيل قواعده، فقال:

والباعثُ على ثني عنان العناية إليه وشحذ سنان العزم عليه، التشرُّفُ بخدمةِ مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدين.

● وكذلك «**الفوائد الغياثية**» في علوم البلاغة لعضد الدين الإيجي (ت ٧٥٦هـ) أهداهُ للوزير الكبير غياث الدين محمد رشيد الدين (ت ٧٣٦هـ) بل سمَّى كتابه باسمه «تيمُّناً باسم من ألقى إليه الدهرُ قياده، وقام بأمر المُلْكِ بأيد فأقامه وما آده...».

● وهناك عالم متفنن، من أعلام الشافعية في عصره، هو حمزة بن عبدالله الناشري اليمني (ت ٩٢٦هـ) ألف كتاباً شاملاً في الصيد والقنص، ومع أنه يصنف في علم الحيوان والصيد، إلا أنه مليء بالأخبار والحكايات والنوادر، مع بيان الأحكام الفقهية فيه، وهو بعنوان: «**انتهاز الفرص في الصيد والقنص**». وقد ألفه لسلطان المسلمين آنذاك، قال: «فأحببت أن أدون له تأليفاً جامعاً في المصائد، حافلاً بالمطارد والمقاصد، يزيد في نشاطه، ويمهد عذره في انبساطه، ينقضُّ على ما فيه من العلوم الجوارح، ويتهافت على ما أرويه منه من الآداب والتحف القرائح، يكون نزهة له في حال السكون، ومسامراً له بما حواه وتكفل به من الفنون، . . .».

استجابة طلب أو سؤال

كان أمرُ تأليف الكتب عند السلف إجابةً لطلب طالبٍ أو سؤالِ سائل وارداً ومستساغاً، بل قد نقول إنه كثير.

وقد يكون هذا رغبةَ طالبِ علم أو صديقِ عالم، أو إشارةً من سلطان أو وال، أو التماساً من ابن أو جماعةً...

وللإمام السخاوي أكثر من كتاب في هذا الشأن..

وهو لونٌ جليلٌ وسببٌ وجيه وأدبٌ رائع في التأليف، وقد خلَّف هذا الأسلوب كتباً عظيمة كانت وستبقى مراجع على مدى التاريخ الإنساني، وستقرأ عن ذلك في نماذج مما يأتي.

ومن عرف قدرة عالم أو باحث على التأليف في موضوع معين، وأنه قد يكون عنده ما ليس عند الآخرين، فليطلب منه ذلك، أو ليوجِّه إليه أسئلةً ويحرِّر أجوبتها، فإنها عادة سلفية جيدة.

فقد يكونُ فيها زادُ علم وفير، أو حلُّ خلافٍ مثار، أو طرحٌ لسنَّةٍ حسنة، أو وصفٌ لدواء بلسمٍ، أو بيانٌ لأمرٍ خفيٍّ كان هو الشاهد فيه، أو تجاربُ وخبرات يكون فيها نفع ودرس وفائدة...

- كثيراً ما تساءل النقاد عن دواعي تأليف الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) لكتاب «**البخلاء**»، والغاية التي دفعته لقسرِ نفسه على تحمل جمع هذه النوادر، ذات المساحة المكانية الشاسعة الممتدة من الحجاز وبلاد الشام إلى أقاصي خراسان؟

وهم يرون ـ كما جاء في مقدمته ـ أنه ألّفه بناءً على طلب من أحد أعيان البصرة، قال: «وقلتَ: اذكر لي نوادر البخلاء، واحتجاج الأشحاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجد، لأجعل الهزل مستراحاً، والراحة جماماً...».

فقصد الهمة، ولبّى الطلب. فمن هو صاحب الطلب؟

يبدو أن حواراً جرى في جلسة إخوانية حول البخل والبخلاء، فاستظرف أحد الأعيان الفكرة، فطلب إلى الجاحظ أن يجمع له خبر نوادرهم.

وربما لم يكن هناك طالبٌ للتأليف أصلاً، وإنما اصطنع الجاحظ وجوده اصطناعاً لغاية يُنشدها، فتخيَّل أحداً دفعه، واهتبل الفرصة[1].

- ويبدو أن كتاب «**القانون في الطب**» لابن سينا (ت ٤٢٨هـ) هو أيضاً من باب إجابة سؤال سائل، فقال في المقدمة: التمس مني بعضُ خُلَّص إخواني، ومن يلزمني إسعافه فيما يسمحُ به، وسعى أن أصنِّف في الطب كتاباً مشتملاً على قوانينه الكلية والجزئية، اشتمالاً يجمعُ إلى الشرح الاختصار... فأسعفته بذلك.

- وجاءت «**مقامات الحريري**» المعروفة أيضاً تلبية لطلب وزير السلطان المسعود، واسمه أنوشروان بن خالد، وقيل: هو الخليفة، وقال بعضهم: غلام الخليفة، ولم يعيِّنه الحريري، بل قال: فأشار مَنْ إشارته حُكم، وطاعته غُنْم، إلى أن أُنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع... يعني مقامات بديع الزمان الهمذاني.

ثم قال: لبَّيتُ دعوته تلبية المطيع، وبذلتُ في مطاوعته جهد المستطيع...

- وسبب إقدام أبي الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ) على تأليف كتابه

(١) من مقدمة محقق الكتاب المذكور: محمد التونجي. ـ بيروت: دار الجيل، ص٩ ـ ١٠.

«**الآثار الباقية عن القرون الخالية**» هو في علم الفلك، إجابة لسؤال سائل أيضاً، ولينال رضا حاكم عصره..

قال في المقدمة: «فقد سألني أحد الأدباء عن التواريخ التي يستعملها الأمم، والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها، والفروع التي هي شهورها وسِنُوها، والأسباب الداعية لأهلها إلى ذلك، وعن الأعياد المشهورة، والأيام المذكورة للأوقات والأعمال وغيرها، مما يعمل عليه بعض الأمم دون بعض. واقترح عليَّ الإبانة عن ذلك بأوضح ما يمكن السبيل إليه، حتى تقرب من فهم الناظر فيها، وتغنيه عن تدوُّخ الكتب المتفرقة وسؤال أهلها عنها...».

ثم بيَّن أنه أمر صعب المرام، ولكنه تشجع على ذلك لإرضاء الحاكم.

- وكان وراء تأليف كتاب «**نُوَر الطَّرْف ونَوْر الظَّرف**» المعروف بكتاب النورين، للأديب المعروف أبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت **٤٥٣**هـ)، طلبُ أحد الكبراء في عصره، إذ أرسل إلى المؤلف كتاباً يطلب منه أن يصنِّف له مؤلفاً لطيفاً في الأدب، ولم يشر الحصري إلى اسم هذا الطالب الذي أهدى إليه الكتاب بعد أن أتمه، ولكن يبدو أنه كان ذا مكانة مرموقة، يتضح ذلك من حديثه عنه في مقدمة الكتاب، فهو يمدحه ويشيد بمآثره وعلمه، وبمكانة خطابه من نفسه، ثم يقول: «أمرتَ فيه ـ أعلى الله أمرك وأسنى قدرك ـ قلباً لا يتقلَّب إلا في طاعتك، وصبّاً لا يتصرَّف إلا في مرضاتك [وهذا زيادة في المدح غير مقبول] أن يمدَّ يد الاختيار والاستجادة لما يقع منك بحسب الإشارة والإرادة، من تصنيف كتاب لطيف ينظم نظم العقود ويرقم رقم البرود...».

ثم يقول: «فأجبتك إلى ما إليه أشرت، على ما أحببت وآثرت من غرائب العجائب...» ويختم إهداءه بقوله: «فلعله يمرُّ بك في تضاعيف هذا التأليف شيء تستندره، مما تؤثره، فيكون سعيي سعيداً، ويقع سهمي

سديداً، ببلوغ الزلفى من حبك، والقربى من قلبك، وتلك أمنيتي حتى ألقى منيتي»[١].

- ولسؤال شرعي متكرِّر أقدم العالم الفقيه محمد بن عبدالله الخباز (ت ٥٣٠هـ) على تأليف كتابه «**أحكام النظر إلى المحرمات**»، وقال: تكرَّر سؤال جماعةٍ من أهل الدين عن النظر الذي أُمِرَ به المؤمنون فيه بغضِّ الأبصار... وسألوا عن قوم يدَّعون الفقر والصلاح والزهد ثم هم ينظرون إلى النساء غير ذوات المحارم وينظرن إليهم، وربما خلوا بهنَّ... فكان الجواب...

- أما سبب تأليف تفسير «**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**» للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، فهو أن طائفة من إخوانه في الدين (وهو معتزلي) كانوا يرجعون إليه في تفسير بعض آيات القرآن الكريم، فإذا أبرز لهم بعض الحقائق أفاضوا في الاستحسان والتعجب، فاشتاقوا إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك؛ لذلك اجتمعوا إليه مقترحين أن يملي عليهم هذا التفسير.

وأنه حينما كان متوجهاً إلى مكة وجد في مجتازه بكل بلد عطشى الأكباد إلى العثور على ما أملاه على طلابه في التفسير، متطلعين إلى إيناسه، حراصاً على اقتباسه، فهز ذلك من عطفه، وحرك الساكن من نشاطه.

وأنه لما حط الرحل بمكة المكرمة جاءه إمام متعطش يتوصل إلى إصابة هذا الغرض (يعني التفسير).

وهذا ما قوى عزمه وقطع عذره..[٢]

---

(١) من مقدمة محققة الكتاب لينة عبدالقدّوس صالح. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة.

(٢) من مقدمة: المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف للزمخشري في ضوء ما ورد في كتاب الانتصاف لابن المنير / صالح بن غرم الله الغامدي. ـ ط٢. ـ حائل: دار الأندلس، ص٤٦.

● وصنَّف الشيخ الجليل عبدالقادر الكيلاني (ت ٥٦١هـ) كتابه «**الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية**» استجابة لطلب بعض أصحابه، قال:

فقد ألحَّ علي بعض أصحابي وشدَّد في الخطاب، في تصنيف هذا الكتاب، لحسن ظنه في الإصابة والصواب... فلما رأيت صدق رغبته في معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسنن والهيئات، ومعرفة الصانع عزَّ وجلَّ بالآيات والعلامات، ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية... فأجبته إلى ذلك...

● ولعل أضخم كتاب أنجز بسبب رغبة حاكم واهتمامه هو «**تاريخ مدينة دمشق**» للحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ). وقد ذكر في مقدمته لهذا الكتاب العظيم أن عزمه على تأليفه كان قديماً «لسؤالِ مَنْ قابلتُ سؤاله بالامتثال والالتزام». قال: «فبدأت به عازماً على الإنجاز له والإتمام، فعاقت عن إنجازه وإتمامه عوائق الأيام، حتى كثر عليَّ في إهماله لوم اللوّام، وتحشيم من تحشيمه سبب لوجود الاحتشام. وظهر ذكر شروعي فيه حتى خرج عن حدِّ الاكتتام، وانتشر فيه بين الخواص والعوام، وتطلَّع إلى مطالعته أولو النُّهى وذوو الأحكام، ورقى خبرُ جمعي له إلى حضرة الملك القمقام الكامل العادل الزاهد المجاهد الرابط الهمام أبي القاسم محمود بن زنكي بن أبي سنقر ناصر الإمام[1]...».

ثم قال بعد ذكر أوصافه وإنجازاته: وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز له والاستتمام، ليُلمَّ بمطالعة ما تيسَّر منه بعضَ الإلمام، فراجعت العمل فيه

---

(١) وهو الملقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر. وهو أعدل ملوك زمانه وأجلّهم وأفضلهم. وكان متواضعاً مهيباً وقوراً، مكرماً للعلماء، ينهض للقائهم ويؤنسهم ولا يردُّ لهم قولاً، عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث بحلب ودمشق من جماعة، كما سمع منه جماعة، وبنى مدارس كثيرة... ت ٥٦٩هـ. الأعلام ٧/١٧٠.

راجياً للظفر بالتمام، شكراً لما ظهر منه من حسن الاهتمام، مبادراً ما يحول دون المراد من حلولِ الحِمام، مع كون الكبر مطية العجز ومظنة الأسقام، وضعف البصر حائلاً دون الإتقان له والإحكام. والله سبحانه وتعالى المعين فيه بلطفه عن بلوغ المرام.

● ويبدو أن إسماعيل بن نصر السلاحي، المعروف بابن القطعة، قد اكتوى بكيد نساء في حياته، ولما طلب منه بعضهم أن ينظم له أبياتاً في عدِّ معايبهنَّ ومثالبهنَّ، أسرع إلى ذلك، بل وزاد عليها شرحاً وافياً مسهباً، وسمى كتابه «**ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار**»! كما ذكر ذلك في مقدمته، وأنه «في وصف النساء الغالبات لكلِّ غالب»! ويقول:

اسمع وصية ناصحٍ قد هذَّبته يدُ التجارب

● ويشتكي أحدهم إلى العلاّمة الحافظ عبدالرحمٰن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) من الحب والجوى، فيبثُّ شكواه لعله يجد عنده حلاً، فيقوم بتأليف كتاب كامل[1] في هذا الموضوع، ويقول مصرِّحاً بذلك في بضعة سطور من مقدمة كتابه «**ذم الهوى**»:

شكا إلي بعض من أثَّرتْ شكواهُ إثارةَ همَّتي في جمع هذا الكتاب، من بلاءٍ ابتُلي به، وهوىً هوىٰ فيه، وسألني المبالغة في وصف دواء دائه، فأهديتُ له نصيحة وديدٍ لأودّائه، وقد أتيت بها على أبلغ ترتيب.

● وكان دافع العلاّمة عبدالغني المقدسي الجماعيلي (ت ٦٠٠هـ) لتأليف كتابه المشهور «**عمدة الأحكام من كلام خير الأنام** ﷺ» هو استجابة لنداء بعض إخوانه... قال: فإن بعض إخواني سألني اختصار جملة في أحاديث الأحكام... فأجبته إلى سؤاله رجاء المنفعة...

● وكذا الكتاب المعروف «**الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**» للحافظ المنذري (ت ٦٥٦هـ) رحمه الله، كان منشأه سؤل «بعض

(١) صدر بتحقيق مصطفى عبدالواحد في أكثر من (٧٠٠) ص.

الطلبة أولي الهمم العالية ممن اتصف بالزهد في الدنيا والإقبال على الله عزَّ وجلَّ بالعلم والعمل...».

- ولا شك أن تفسير النسفي مشهور، وله ميزة خاصة، وقد جاء بعد معاناة وتفكير وتخطيط، وقد كان إجابة لسائل. قال الإمام النسفي عبدالله بن أحمد (ت ٧١٠هـ) رحمه الله في مقدمة تفسيره هذا، المسمى «**مدارك التنزيل وحقائق التأويل**»:

قد سألني من تتعين إجابته كتاباً وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علمَي البديع والإشارات، حالياً بأقاويل أهل السنّة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل. وكنت أقدم فيه رجلاً وأؤخر أخرى، استقصاراً لقوة البشر عن درك هذا الوطر، وأخذ السبيل الحذر عن ركوب متن الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله...

- و«**عنقود الزواهر**» في الصرف لعلي بن محمد القوشجي (ت ٨٧٩هـ) كان استجابة لأمر السلطان العثماني محمد بن مراد خان، الذي حكم ثلاثين عاماً، وقد لقب بأبي الفتح لكثرة فتوحاته (ت ٨٨٦هـ)، قال: فتشمَّرتُ قائلاً: سمعاً وطاعة لامتثال الحكم الواجب الإطاعة...

- و«**هدية الصعلوك شرح تحفة الملوك**» لمحرم بن محمد الزيلعي (ت بعد ١٠١٠هـ) في الفقه الحنفي، شرحها استجابة لطلب صديقٍ له موظف بسيواس، كما في مقدمة الكتاب.

- وقال الشيخ أحمد بن عمر الديربي الغنيمي، المتوفى سنة ١١٥١هـ في مقدمة كتابه «**غاية المقصود لمن يتعاطى العقود**»: قد سألني والدي وبعض الإخوان من الأنام... أن أكتب شيئاً من المسائل الشريفة المتعلقة بالنكاح... فأجبتهم لذلك، راجياً العفو والغفران...

- وكان دافع عيسى البندينجي (ت ١٢٨٣هـ) لتأليف كتاب «**جامع الأنوار في مناقب الأخيار: تراجم الوجوه والأعيان المدفونين في بغداد وما**

جاورها من البلاد» هو استجابة لطلب نقيب الأشراف محمود بن زكريا الكيلاني (ت ١٢٥٨هـ) كما ذكره في مقدمته، وأصله من تأليف نظمي زاده (ت ١١٣٤هـ) فزاد هذا فيه وحرَّره من جديد.

أجوبة مسائل

قد يدخلُ هذا ضمن أنواع التأليف وليس أسبابه، لكن ناسبَ مجيئهُ بعد الموضوع السابق من التأليف «استجابة طلب أو سؤال»، كما عُدَّ من أنواع التأليف وأسبابه «جمعُ ما تفرَّق»، فيكون السببُ هنا جامعاً بين المسألتين...

ويدخلُ في هذا معظم كتب الفتاوى الشرعية، التي عادة ما يكون أصلها أسئلة يجيب عليها الفقيه، ثم يجمعها في كتاب، أو تُجمع له من بعد، أو تجمع فتاوى عدة علماء، في موضوع أو موضوعات، فتكون مرجعاً عظيماً وفائدة محققة، كفتاوى السبكي، وفتاوى ابن تيمية... وغيرها.

- وقد جمع الإمام **الشوكاني فتاويه** في مجلدين كبيرين بعنوان: الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني...
- وفي مقدمة «**الفتاوى السراجية**» أن فيها نوادر وقائع لا توجد في أكثر الكتب.
- وفتاوى الإمام الشريف صديق حسن القنوجي المتوفى سنة ١٣٠٧هـ، المسماة «**دليل الطالب على أرجح المطالب**» قام بتأليفها عندما رأى «همَّة شامخة وقوة راسخة بالبحث عن الحق والصواب والسداد، وشمَّروا عن ساق الجد للعمل بمقتضى مدلولات الكتاب والسنَّة، ولكنهم لم يظفروا بمن يستطيعُ أن يجيب عن أسئلتهم في ضوء

الكتاب والسنَّة وقواعد أصول الملَّة، وهم يرغبون في هذا النوع من الرسائل والمسائل، ويتمنَّون الحصول عليها بكلِّ غال ورخيص...

- و«**فتاوى قاضيخان**» المتوفى سنة ٥٩٢هـ، ذكر حاجي خليفة أنها مشهورة مقبولة معمول بها متداولة بين أيدي العلماء والفقهاء، وأنها كانت نصب عين من تصدَّر للحكم والإفتاء، ذكر فيها جملة من المسائل التي يغلب وقوعها وتمسُّ الحاجة إليها وتدور عليها واقعات الأمة...

- و«**الفتاوى العالمكيرية**» المعروفة بالفتاوى الهندية جُمعت بأمر الحاكم المظفر محيي الدين محمد أورنك زيب بهادر عالمكير، في مجلدات ضخام... جمعها ونسخها ورأس لجانها علماء أعلام من فقهاء الحنفية...

- وفي موضوعات أخرى كالأدب واللغة والفلسفة هناك كتاب «**الهوامل والشوامل**» وهو سؤالات أبي حيان التوحيدي لأبي علي مسكويه، فقد ألف الكتاب لأجل أسئلته، وقال في المقدمة: قرأتُ مسائلك التي سألتني أجوبتها في رسالتك... وها أنذا آخذ في أجوبة مسائلك التي سميتها «الهوامل» ومجتهد في ردِّها عليك...

- و«**رسالة الملائكة**» التي ألفها أبو العلاء المعري، معظمها مسائل في التصريف، سئل عنها فأجاب، ولا سبب واضح لهذه التسمية في العنوان، وربما كان سبب تسميتها بذلك أنه افتتح القول فيها بالكلام على مَلَك وملائكة، ثم ذكر جملة من أسماء الملائكة، كعزرائيل وإسرافيل وجبرائيل...

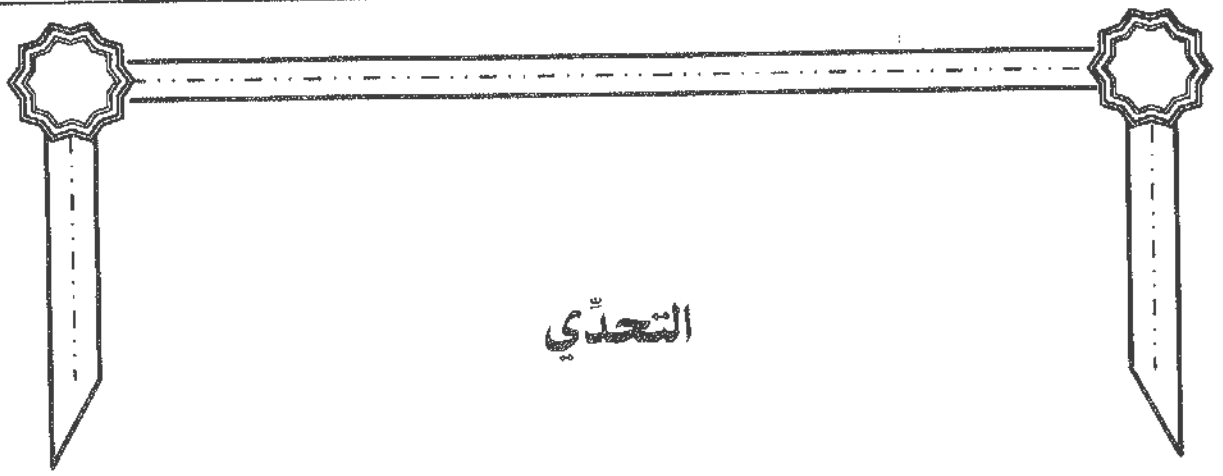

التحدِّي

التحدِّي والعناد صفتان في الإنسان، قد يكونُ من ورائهما خيرٌ أو شرّ، حسب نيةِ المرءِ والأمر المتحدَّى بشأنه. وقد استدار التحدِّي أو تطاول حتى ألقى بظلاله على التأليف، ونتج عن ذلك آثارٌ تُقرأ، حفظها لنا التاريخ، وغاب عنا كثيرٌ منها.

وقد لا يُفصح المؤلف في كلّ مرّة أن ما يُقدم عليه كان نتيجة تحدٍّ، لأن هذا أمرٌ شكلي، والمهمُّ هو تقديم الموضوع وإسكات الخصم، وقد حصل.

- الأديب عبدالملك بن عبدالله المعروف بابن بدرون (ت نحو ٦٠٨هـ) يحكي قصة تأليفه لـ«**شرح قصيدة ابن عبدون**»، وكيف أن مجلساً ثقافياً حوى «جماعة من فرسان النثار والنظام» وأصبحوا يتحدثون عن «ديوان العرب» وما أبدع فيه بلاغة ونظماً، وتطرق الحديث إلى قصيدة الوزير الكاتب ابن عبدون المبدعة، وأنه لا يروم شرحها أحد «إلا ويسير في طريقها كالأعمى» وأنه أشار بعضهم إلى ابن بدرون هذا وقدرته على فك مغاليقها وبيان مضامينها، لكنه لم يلتفت إليه، وظن القوم أنه أصيب بغرور لمدحه بهذا الأمر، فانتابته نعرة الأديب المنفعل وقال: «بل أفعل إن شاء الله تعالى بحوله وقوته ما قال وأكعم بها النباحين. فعوَّلت أن أوري قدحها... وأطلع صبحها، وأقص شرحها، وأجمع أخبارها...».

- ويظهر من صنيع الإمام السيوطي في الإقدام على تأليف كتابه اللغوي الظريف «**التبرّي من معرَّة المعرّي**» ليس هو التبرؤ من معرَّته فقط، بل هو التحدِّي، الذي أوصله إلى هذا التبري. وقد قال في بداية كتابه

المذكور: دخل أبو العلاء المعري على الشريف المرتضى، فعثر برجل، فقال الرجل: من هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلبُ من لا يعرف للكلب سبعين اسماً!

قال السيوطي: وقد تتبعتُ كتب اللغة، فحصَّلتها ونظمتها في أرجوزة...

● ويبدو أن للإمام السيوطي أكثر من كتاب نتيجة التحدي، ولا غرو في ذلك وهو يعدُّ من أغزر المصنفين إنتاجاً في البحث والتأليف.

وله رسالة صغيرة لكنها جليلة القدر بعنوان «**الفوائد البارزة والكامنة في النعم الظاهرة والباطنة**»، حيث ذُكر له أن أحدهم «وقف على كلام الإمام النسفي، مضمونه أنه ذكر في بعض كتبه المطوَّلة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ ثلاثمائة قول، وأنه متشوِّف للوقوف عليها، وسألني: هل وقفت على شيءٍ من ذلك؟ فقلت له: لم أقف على شيء من ذلك، لكن يمكنني أن أذكر ذلك استنباطاً بحمد الله عندي حاضرة، وقد أسبغ الله تعالى من نعمه الظاهرة والباطنة».

قال: ثم أخذتُ أجولُ في استنباط ذلك...

● وحديثاً يظهر من كلام للأديب جميل العظم، المتوفى سنة **١٣٥٢هـ**، في مقدمة كتابه «**السرُّ المصون على كشف الظنون**»، وقد شطبه لكن نقلته في مقدمة التحقيق لأبرز دافعه إلى التأليف، أنه كان قد بدأ به ثم أعرض عنه، ثم جمعه مجلس مع بعض الناس فعرَّض به وبعمله أحدهم، يعني انتقص من عمله أو شكَّ في قدرته على إتمامه، فتحدّاه، وأكمل عمله، قال: إلا أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد نشرَ فضيلةٍ طويت أتاح لها لسانَ حسود لتُنشر، وقيَّض لها بادرةَ حقودٍ لتُذكر...

قال: فشمَّرتُ عن ساعدِ الجدِّ والاجتهاد، وكلفتُ جفني أن يكتحلَ الليالي الطويلة بإثمد السهاد...

وقد دعوتُ لذلك الحقود الحسود، الذي كان سبباً لإتمام هذا الكتاب الضخم، الذي يقع في (١٠) أجزاء، لكن تسعةً منها ضائعة!

البحث والتحرّي

قد يُثارُ موضوعٌ فيشكُّ بعضهم فيما قيل، أو فيما تُوصِّل إليه، أو يُذكرُ كلامٌ ناقص، أو مشكل، أو موهم... فيؤدِّي هذا إلى البحث والتحرِّي وبيان جوانب الموضوع للوصول إلى الحقيقة.

وقد يثق بعضهم باطلاع باحث على تفاصيله ومتعلقاته، فيُطلب منه بحثه، ثقةً به وبعلمه، فيُقدم عليه.

وهذا شكلٌ دخل في مضمون، فإن غاية البحث والتحرِّي هو الوصول إلى الحقيقة والأمر المطلوب.

- يذكر أحمد بن محمد مكي الحموي، المتوفى سنة ١٠٩٨هـ، أن الباعث على تأليف كتابه «**درر العبارات وغرر الإشارات في تحقيق معاني الاستعارات**» أن بعضهم التمس منه «ضبط مباحث الاستعارات التي هي مرمى نظر الفصحاء وأرباب الإشارات، على وجه يوصل إلى كنه حقيقتها، ويوقف على ذروية نهايتها، إذ مسائلها مفترقة متشعبة، والإحاطة بها على أولي التحصيل مستعصية مستصعبة... فلما رأيت الشأن على ما تقرر، والبيان على ما تحرر، ألقيت عني جلباب المهل، وأمطت عن ردائي الكسل، وشرعت في مراجعة جرائد أوراقها ومراودة خرائد أذواقها، سالكاً طريق الإيضاح...».

● وهذا محمد بن أحمد الكنجي (ابن أبي عصرون، ت ١١٥٠هـ) كان الباعث على تأليف كتابه «**رشف النبيه من ثغر التشبيه**» هو أنه لم يقف على كتاب سابق يشفي الغليل من حصر أنواع التشبيه وأقسامها وتفاصيلها... فأحب أن يقرر كتاباً يبين ذلك.

الرؤيا

وقد يرى المرءُ رؤيا مباركة فيُصادف ذلك رغبةً منه في تنفيذه فيُقبلُ عليه، وقد يكون نتيجة ذلك كتب مفيدة ورائعة...

- ومن ذلك إقدام الإمام عبدالحي اللكنوي (ت ١٣٠٤هـ) على تأليف شرحه على موطأ الإمام مالك (رواية محمد بن الحسن الشيباني) الذي سماه «**التعليق الممجد**» فهو رؤيا منامية، قال: رأيت في المنام في السنة (١٢٨٨) من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة والتحية كأني دخلت في المسجد النبوي بالمدينة الطيبة، فإذا أنا بالإمام مالك جالساً فيه، فحضرت عنده وصافحته وقلت له: كتابكم الموطأ فيه اختلاجات وشكوك أرجو أن أقرأه عليكم لتنحلَّ تلك الشكوك. فقال فرحاً ومسروراً: هات به واقرأه عندي. فقمت من هناك لأن آتي به من بيتي، فاستيقظت، وحمدت الله على هذه الرؤيا الصالحة وشكرت، فكان في هذه الرؤيا إشارة من الإمام مالك إلى توجهي بموطأه والاشتغال بدرسه وتدريسه وشرحه، فلما تذكرت هذا صممت عزمي بتعليق تعليق عليه...

- وورد في السطر الثالث من الصفحة الأولى من مخطوطة «**في فصاحة بلاغة القرآن**» لعبدالرحمٰن النفطي، أنه سمع صوتاً رقيقاً ـ وهو نائم ـ من سيِّده أبي علي قائلاً له: بارك الله فيك، قم فهذِّب القرآن من جناسه وفصاحته وبلاغته من فن علم البيان[1].

(١) مجلة الوثائق والمخطوطات ع١ (١٩٨٦) ص٣٢٩ ـ ٣٣٠.

● وحديثاً نعرج على كتاب «**إنفاق المال في مرضاة الله المتعال**» لعبدالرحمٰن الكوثر بن محمد عاشق البرني، الذي يقول في سبب تأليفه:

رأيتُ في المنام أن بعض المحسنين بالمدينة المنورة يطلب مني أن أؤلف كتاباً أجمعُ فيه فضائل الصدقة، فذكرتُ ذلك له، ففرح بهذه الرؤيا المباركة، فطلب مني ذلك يقظة كما طلبه مني مناماً، فشرعتُ في تأليف هذا الكتاب، مستعيناً بالله المليك الوهاب.

الشكر والاعتراف بالفضل

الشكرُ فضيلة جميلة يعرفها ذوو النفوس الطيبة والخصال الحميدة ممن يقدِّرون المعروف ولا ينسون الفضل، ويبيِّنه قولُ رسول الله ﷺ: «**إن أشكر الناسِ لله تعالى أشكرهم للناس**»[(١)].

وقد يكون الشكرُ أحد أسباب التصنيف، عندما يكتبُ المرءُ لله تعالى شكراً له على ما أسبغ عليه من نعمة العلم ووفقه للأعمال الصالحة، وزكاة العلم تعليمه وتبليغه.

وقد يشعر آخر بفضل عالم أو جماعة عليه فيكتبُ عنهم مشيداً بهم وبأفضالهم.. وهكذا على أنواع الشكر ومجالاته..

- وقد صنف أبو العباس أحمد بن محمد الولاّلي (ت ١١٢٨هـ) كتابه «**مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار**» شكراً وامتناناً لأفضال العلماء الذين التقى بهم خاصة، بينهم شيوخ له، فقال باختصار:

«هذه مباحث أذكر فيها من محاسنهم ما يكون فيه أداء لبعض شكر ما لهم علينا من المنة، ويكون تذكرة لمن أراد أن يتذكر استمطاراً لوابل رحمتهم، واستفاضة لأبحر نعمتهم».

وإنما الرحمة والنعمة من الله سبحانه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ١١٢/٥، ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ١٨٠/٨.

● ولـ«**مقامات الزمخشري**» قصة قد لا يعرفها كثير من القرّاء، فقد أنشأها بعد مرض أنهك جسمه، وكان سبب إنابته وتغيُّر حاله، وقد أخذ على نفسه الميثاق لله إنْ منَّ عليه بالصحة أن «لا يطأ بأخمصه عتبة السلطان... وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم... وأن يعتصم بحبل التوكل ويتمسّك، ويتبتّل إلى ربه ويتنسّك... وأن لا يدرّس من العلوم التي هو بصددها إلا ما هو مهيبٌ بدارسه إلى الهدىٰ، رادعٌ عن مشايعة الهوىٰ، ومُجْدٍ عليه في علوم القراءات والحديث وأبواب الشرع... وحين أتاح الله له الصحة التي لا يُطاق شكرُها، وألطف له في الوفاء بما عهد... عمل في إنشاء المقامات حتى تمَّمها خمسين مقامة، يعظ فيها نفسه، وينهاها أن تركن إلى ديدنها الأول، إلا على سبيل التندُّم والتحسُّر...».

● والتحدُّث بنعم الله شكر، وقد قال رسول الله ﷺ: «**التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر**»[1].

وأخرج البيهقي عن أبي الحواري قال: جلس الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصبح يتذاكرون في النعم: أنعم الله علينا في كذا، أنعم الله علينا في كذا.

وللشيخ عبدالوهاب الشعراني (ت **٩٧٣**هـ) كتاب نادر في موضوعه، وهو «**لطائف المنن في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق**» وهي «**المنن الكبرى**» تحدث فيه عما أنعم الله به عليه من علم وعبادة ومال وشهرة.. حتى عن أزواجه وأخلاقهن وعباداتهن ومعاشرتهن بالمعروف...

إنها سيرة عجيبة ونادرة لعالم متصوف!

---

(١) جزء من حديث رواه عبدالله بن أحمد بن حنبل والبزار والطبراني عن أبي أمامة الباهلي رفعه، ورجالهم ثقات، قاله الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٢١٧/٥ ـ ٢١٨.

وللفائدة أذكر قول ابن القيم رحمه الله:

الشيء الواحد تكون صورته واحدة، وهو ينقسم إلى محمود ومذموم، فمن ذلك: التحدُّث بالنعمة شكراً، والفخر بها.

الأول: القصد بها إظهار فضل الله وإحسانه وإشادتها...

والثاني: القصد بها الاستطالة على الناس والبغي عليهم والجور والتعدي وإهانتهم، وهذا هو المذموم[1].

(١) أورده السيوطي في كتابه: نزول الرحمة في التحدث بالنعمة ص٣٧ ـ ٣٨ (بتحقيق عبدالحميد شانوحة).

طلب الأجر والثواب من الله

وقد لا يكون هناك سببٌ مباشرٌ أو موضوعي للتأليف، وإنما يُقدمُ المؤلف على الكتابة طلباً للأجر والمثوبة من الله سبحانه، فإن كل من كتب شيئاً أُجِر، شرط أن يكون موافقاً للشرع وخالصاً لوجه الله الكريم، فيكونُ له أجر كلِّ من قرأه وعمل به حتى تنتهي الدنيا.

وكلما كان الموضوع مهماً ومحكماً ومفيداً كان أجره أكبر... وفي هذا تشجيع كبيرٌ على تعلُّم العلم ونشره.

وباعثُ التأليف هذا واسعٌ جداً، قد يدخلُ فيه أسبابٌ أخرى كثيرة ويكونُ من ورائها جميعاً طلبُ الأجر والمثوبة، لكن المقصود هنا ما ذُكر وحده دون إبداء أي دافع أو سبب آخر للتأليف.

- قال القفال الشاشي (ت ٥٠٧هـ) في مقدمة كتابه الجليل «**حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء**» الذي صدر محققاً في (٨) مجلدات، مبيناً دافعه وغايته من تأليفه هذا:

... استخرتُ الله تعالى في كتابٍ جامعٍ لأقاويل العلماء تقرُّباً إلى الله تعالى... وينتفع به كل ناظرٍ فيه فأُرزق الأجرَ فيه والثوابَ عليه إن شاء الله تعالى.

- وقد ناسب أن يقول، فقال الحافظ ضياء الدين المقدسي (ت ٦٤٦هـ) في كتابه «**فضائل الأعمال**»: هذا الكتاب جمعته... ورجوتُ أن ينفعنا الله به.

- وقال الإمام القرطبي (ت ٦٧١هـ) في «**التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**»: فإني رأيتُ أن أكتب كتاباً وجيزاً يكونُ تذكرة لنفسي، وعملاً صالحاً بعد موتي، في ذكر الموت وأحوال الموتى...

- وقال في كتابه «**الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته**»: لما قال ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**» وتكلم العلماءُ في الإحصاء... أردتُ أن يكون لي من هذا الإحصاء نصيب، تفضلاً من الله الكريم المجيب.

- وقال الإمام النووي في مقدمة رسالته الوجيزة البليغة «**المقاصد**»: هذه مقاصد نافعة وأنوار لامعة أسألُ الله تعالى أن يجعلها خالصة من أجله، وأن يثيبني عليها من فضله.

- وقال الإمام القسطلاني في آخر مقدمة كتابه «**مسالك الحنفا إلى مشارع الصلاة على النبي المصطفى** ﷺ»: خدمتُ به حضرته الكريمة، راجياً جائزته الجسيمة العظيمة، وإجازته الشاملة العميمة.

- وهناك رسالة جليلة للإمام الشاطبي عرفت برائية الشاطبي، وهي «عقيلة أتراب القصائد» في رسم المصحف. قام العلّامة الملا علي سلطان القاري الهروي (ت ١٠١٤هـ) بشرحها وسماه «**الهبات السنية العلية على أبيات الشاطبية الرائية**» وقد ذكر في مقدمته أن جمعاً من أصحاب الفواضل الرضية والفضائل البهية قاموا بشرحها، قال: «فأردت أن أشاركهم في مسلك هذه القضية، لعلي أصادف تحسين النية وتزيين الطوية، ليكون وسيلة إلى الدرجات العلية».

- وأشهر التفاسير النحوية هو تفسير «**البحر المحيط**» لأبي حيان محمد بن يوسف النحوي (ت ٧٤٥هـ). ويظهر من مقدمته أنه كان يريد أن يحصّل أكبر قدر من العلم حتى يبلغ الستين من عمره ليقدم على تفسير كتاب الله عزَّ وجلّ، فبلغه الله ما يروم، وذهب إلى مصر بيضة الإسلام، ومستقر الأعلام، ليصنف فيها تصانيفه، ومنها هذا التفسير العظيم، بعد أن نصب مدرساً في علم التفسير في قبة السلطان الملك

المنصور، في دولة ولده الملك الناصر، فعكف على التفسير وهو في أوائل سنة (٥٧) من عمره، ليكون نوراً يسعى بين يديه ـ كما قال ـ وستراً من النار يضفو عليه، «فما لمخلوق بتأليفه قصدت، ولا غير وجه الله به أردت، جعلت كتاب الله والتدبير لمعانيه أنيسي، إذ هو أفضل مؤانس، وسميري إذا أخلو لكتب ظلم الحنادس...».

- وقد ذكر الشيخ حسن الكفراوي الشافعي (ت ١٢٠٢هـ) أنه وضع شرحاً على متن **الآجرومية للصنهاجي** «ليكون سبباً للنظر إلى وجه الله الكريم، وموجباً للفوز لديه بجنات النعيم».

الحاجة والأهمية والضرورة

هناك أمور ضرورية ومهمة يتناوبُ العلماء والمتخصصون في الكتابة فيها؛ للحاجة المتكررة إليها، وللتذكير بها، ولأن أهميتها لا تضمحل وضرورتها لا تفنى، فكان في إفراد موضوعاتها في كتب، بل وإدراجها ضمن موضوعات أخرى كثيرة أمراً وارداً ومألوفاً، كبيان مبادىء الإسلام وأركان الإيمان، والقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والنبوة والأسوة، ودفع المطاعن والشبهات عن الدين، وما يضرُّ وما ينفع، ومما يتثقَّفُ به كل إنسان من أولويات مما يكوِّن ثقافة إنسانية عامة، من آداب وتقاليد ومعارف تاريخية وجغرافية بارزة.

ولا شك أن القول بالضرورات متنوع، فقد تكون أصلية أو آنية، أو هما معاً، وبذلك تتجدَّدُ الضرورات وتتكرر حسب العصور ولبوساتها، مما يتطلَّبُ تحسينات وأفانين جديدة لطرحها ومناقشتها.

على أن قول الكاتب في موضوع يكتبه وأنه فوق كل الضرورات وأهم المهمات في بعضها أو كثير منها مبالغة؛ نظراً لتعلقه بموضوعه واندماجه معه وطرحه من زاوية خاصة هي المستأثرة لديه دون حساب غيرها، كما يأتي في نموذج من أن بعضهم عدَّ الشعر الجاهلي حاجة وضرورة!

وهذه نماذج مما ذكره المؤلفون، من أهمية وحاجة الموضوعات التي تطرَّقوا إليها، وهو كما قلت نماذج فقط، لا تمثِّل سوى لوحة من لوحات التراث الإسلامي المضيئة.

وبعضهم لا يذكر هذا السبب ولو أنه يبحث في موضوعها.. فليتأمَّل!

- «**الفصول في سيرة الرسول ﷺ**» كتبه الحافظ ابن كثير رحمه الله لأنه «لا يجمل بأولي العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية، وهي مشتملة على علومٍ جمَّة وفوائد مهمة، لا يستغني عالمٌ عنها ولا يُعذرُ في العروِّ منها».

- وبمثل قوله وفي موضوعه يقول الجمّاعيلي رحمه الله في «**الدرَّة المضيَّة في السيرة النبوية**»: هذه جملة مختصرة من أحوال سيِّدنا ونبيِّنا المصطفى محمد ﷺ لا يستغني عنها أحدٌ من المسلمين.

- والذي دعا ابن قيم الجوزية إلى تأليف كتابه «**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**» هو أهمية الموضوع، قال: فإن أهم ما يجب معرفته على المكلف النبيل، فضلاً عن الفاضل الجليل، ما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، فهو من أسنى المقاصد، والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه، فهو أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان... إلخ.

- ويقول في كتابه «**عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**»: لمّا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر؛ كان حقيقاً على من نصح نفسه وأحبَّ نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين... فكذلك وضع هذا الكتابُ للتعريف بشدَّةِ الحاجة والضرورة إليهما، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخرة عليهما.

- وكان دافعُ الإمام البقاعي (ت ٨٨٥هـ) لتأليف كتابه «**عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران**» هو ما تجمَّع لديه من أسماء شيوخه وأقرانه وقد تنقَّلَ في البلدان لأجل طلب العلم، فرأى أن على كلِّ عالمٍ برجالِ أهلِ حقبةٍ أن يذكر أحوالهم ومدى عدالتهم أو ما قيل فيهم من جرح، لأنه لا يعرفه إلا أهل زمنه، فتوجَّه لأجل ذلك إلى تقييد أسماء هؤلاء الأعلام وبيان حالهم ممن التقى بهم وعرفهم.

● ويكتب ابن اللحام (ت ٨٠٣هـ) في موضوع أصول الفقه لأهميته، فيقول في مقدمة كتابه «**القواعد**»:

فإن علم أصول الفقه لما كان في علم الشريعة كواسطة النظام، متوسطة بين رتبتَي الفروع وعلم الكلام، وهو علم عظم شأنه وقدره، وعلا في العالم شرفه وفخره، إذ ثمرته ما تضمنته الشريعة المطهَّرة من الأحكام، وبه تُحكم الأئمة الفضلاء مباحثهم غاية الإحكام؛ استخرت الله تعالى في تأليف كتاب أذكر فيه قواعد وفوائد أصولية، وأردف كل قاعدة مسائل تتعلق بها من الأحكام الفروعية.

● واعتبر أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت ١٧٠هـ) تصنيف كتابه «**جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**» هدفاً طبيعياً، لأن الأشعار الأولى هي الأصل... فقال في المقدمة:

فلما لم نجد أحداً من الشعراء بعدهم إلا مضطراً إلى اختلاس محاسن ألفاظهم، ووجدناهم مكتفين عن الاضطرار إلى غيرهم بمعرفتهم، ومع ذلك فهم فحول الشعراء الذين خاضوا بحره، وبَعُدَ فيه شأوهم، واتخذوا فيه ديواناً كثرتْ فيه الفوائد عنهم، ولولا أن الكلام مشترك لكانوا قد حازوه دون غيرهم، فأخذنا من أشعارهم إذ كانوا هم الأصل، غُرَراً هي عيون أشعارهم، وزمام ديوانهم.

● ووضع القاضي والفقيه المالكي الحسن بن رحال التدلاوي (ت ١١٤٠هـ) كتابه «**الارتفاق في مسائل من الاستحقاق**» للحاجة إليه، حيث قال في المقدمة:

هذه أوراق ألّفها كاتبها في مسائل من الاستحقاق دعت إليها الحاجة غاية؛ لتكرُرها بين يدي القضاة، ومن عانىٰ القضاء علم ذلك.

ولعل هذا الكتاب هو أول ما صنِّف في موضوعه.

والارتفاق: أن يُقضى للرجل ببيِّنة بالشيء يدَّعيه في يد غيره بعد أن يحلف أنه ما باع ذلك الشيء ولا وكَّل بيعه ولا وهبه ولا تصدَّق به، وأن ملكه ثابت عليه إلى وقته ذلك.

الإحاطة والاستبصار والتحذير تجنباً للوقوع في الخطأ والزيغ

هناك أمورٌ قد تغيب عن البال أو تشكل على الفكر، أو يُثارُ حولها شكوك وشبهات فتفقدُ أصالتها وعمقها في الفكر والقلب، برغم أهميتها. وهذا يحتاج إلى الكتابة فيه للتذكير بأصله وموقعه وحقيقته، ورفع الغبار عنه ليعود إليه بريقه ومكانته.

وقد تنتشر مفاهيم خاطئة بين الناس أو فئة من المجتمع... والعلماء وأهل الذكر أطباءُ القلوب وخبراء في أمراض المجتمعات، فلا بدَّ أن يبيِّنوا ويوجِّهوا ويحذِّروا حتى تستقيم الأمور ويعود المجتمع الإسلامي إلى عافيته وصواب مفاهيمه ومنطلقاته.

ويأتي التحذير للإحاطة والاستبصار تجنباً للوقوع في الخطأ، وقد يُحاطُ المرءُ علماً بالشيء ويُبَصَّرُ به لوجود أكثر من رأي فيه، ويكون هذا في موضوعات دينية وتاريخية ولغوية وما إليها.

ولهذا الباعث على التأليف ارتباط بالباعثين التاليين، وبدافع دحض الشبهات والمطاعن وتاليه... وقد أفردته لبروزه وأهميته.

- وهذا هو اللغوي البارع أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ) قد هدف من وضع معجمه العظيم «**تهذيب اللغة**» الناحية الدينية، يقول في مقدمته رحمه الله:

«... فعلينا أن نجتهد في تعلم ما يتوصل بتعلمه إلى معرفة ضروب خطاب الكتاب ثم السنن المبيِّنة لجمل التنزيل، الموضحة للتأويل، لتنتفي عنا الشبهة الداخلة على كثير من رؤساء أهل الزيغ والإلحاد، ثم على رؤوس ذوي الأهواء والبدع، الذين تأولوا بآرائهم المدخولة فأخطئوا، وتكلموا في كتاب الله عزَّ وجلّ بلكنتهم الأعجمية دون معرفة ثاقبة فضلُّوا وأضلّوا. ونعوذ بالله من الخذلان، وإياه نسأل التوفيق للصواب فيما قصدناه، والإعانة على ما توخيناه، من النصيحة لجماعة أهل دين الله...».

- وهناك فن معقَّد في تراجم الرواة يقال له «المتفق والمفترق»، وهو ما يتفق لفظاً وخطاً، أي يكون الاسم الواحد قد أطلق على أكثر من راو، فهم متفقون في أسمائهم مفترقون في أشخاصهم. وهو فن مهم جداً لا غنى عن معرفته للأمن من اللَّبس، فربما يظن الأشخاص شخصاً واحداً، وربما يكون أحد المتفقين ثقة والآخر ضعيفاً، فيضعف ما هو صحيح أو يصحح ما هو ضعيف[1].

وقد قام محدِّث عظيم بعمل قدير لئلا يؤدي الأمر إلى خطأ متوقع، إنه الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ) في كتابه «**المتفق والمفترق**» الذي بيَّن دافعه لتأليفه فقال: «فإني ذاكر في كتابي هذا نوعاً من علم الحديث قد يقع الإشكال في مثله على من لم ترتفع في العلم رتبته ولم تَعْلُ في تدبيره طبقته، وهو بيان أسماء وأنساب وردت في الحديث متفقة متماثلة، وإذا اعتبرت وجدت مفترقة متباينة، فلم يؤمن وقوع الإشكال فيها، ولو في بعضها، لاشتباهها وتضاهيها. وقد وهم غير واحد من حملة العلم المعروفين بحسن الحفظ والفهم في شيء من هذا النوع الذي ذكرناه، فحدانا ذلك على أن شرحناه ولخصناه».

- وكان دافع أبي محمد اليمني (ت بعد ٥٤٠هـ) لتأليف كتابه «**عقائد الثلاث والسبعين فرقة**» دافعاً موضوعياً، فيه غيرة على أهل السنَّة

(١) من مقدمة محقق الكتاب «محمد صادق آيدن».

والجماعة وخوف على أهله من أن يغتروا بأقاويل أهل الباطل وفلسفتهم فيضلوا. ومما قاله في مقدمته رحمه الله:

«لما رأيت الناس قد غفلوا عن أديانهم، واستخفوا بمعادهم، واشتهروا في فساد مذاهبهم بالإصغاء إلى أهل البدع والأهواء، بما زخرفوه وصنَّفوه، وأوَّلوه وتأولوه، من ابتداع مذاهب شتى، استدلوا عليها من الكتاب على غير ما أنزل الله، ومن السنَّة على غير ما نقلت، وشيئاً ابتدعوه من تلقاء أنفسهم؛ عناداً لفساد دين الإسلام، أحببت أن أجمع مختصراً أذكر فيه عقائد الثلاث والسبعين فرقة التي ذكرها رسول الله ﷺ لنفعِ حائرٍ ينكر عن الدخول في بدعتهم».

إلى أن قال: «وبينت ما شككوه واهتموا ووهموا به على أهل السنة والجماعة من أقاويلهم الفاسدة وتأويلاتهم الباردة؛ تلبيساً منهم على حائرِ فكر، ضعيفِ لبّ يتبعهم، حتى استغرُّوا كثيراً ممن جهلوا أمرهم، وشككوا عليهم دينهم بما ألقوا إليهم من مشكل القرآن على غير إشكاله، ومتشابهه على ظاهره، وظاهره على متشابهه، وضربوا عليهم القرآن بعضه ببعض، واحتجوا بالمنسوخ على أنه محكم، وبالناسخ على أنه منسوخ...».

● ويدور موضوع «**تلبيس إبليس**» للحافظ ابن الجوزي رحمه الله، حول تلبيس إبليس على الخلق وغرورهم به، على مختلف أنواع طبقاتهم. والتلبيس ـ كما فسَّره المؤلف ـ هو إظهار الباطل في صورة الحق. وأما الغرور فهو نوعُ جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحاً، والرديء جيداً؛ وسببه وجود شبهة أوجبت ذلك.

قال ابن الجوزي: «فرأيت أن أحذِّر من مكايده، وأدلَّ على مصايده، فإن في تعريف الشرِّ تحذيراً من الوقوع فيه».

وقد سار على بيان الشبه التي يلبِّس بها إبليس على العباد، سواء في العقائد أو العبادات أو المعاملات. كما شمل ذلك التلبيس طوائف كثيرة من الناس، منهم العلماء والقراء والمحدِّثون والوعاظ وأهل اللغة والسلاطين والعباد والزهاد والصوفية. وكرَّ على كل صور التلبيس التي ذكرها بالتحليل

والنقد، وكشف زيفها شبهة شبهة، مستعيناً على ذلك بأدلة الكتاب والسنة[١].

- وكان الدافع وراء تأليف كتاب «**شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**» للعالم الجليل ابن قيم الجوزية، وهو خطير في موضوعه، زلت فيه العقول، ونشأت من سوء فهمه فرق وطوائف، وألفت فيه كتب، وردود ومناقشات ودفع مطاعن كثيرة، فتصدى لهذا كله ليبين القول العدل من «مشكاة الوحي المبين»، لأن الأمر يتعلق بأسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه وأمره، فلا بدَّ أن تكون المعرفة الصحيحة من خلال الكتاب والسنّة.
- وقال أبو بكر هداية الله المصنف (ت ١٠١٤هـ) في سبب تأليف كتابه «**طبقات الشافعية**»: إن مما لا بدَّ منه للمتفقِّه في مذهب الشافعي أن يعلم أسماء الرجال الناقلين عن الشافعي والمنسوبين إليه في كل طبقة، وأن يعلمَ أسماء كتبه القديمة والجديدة، وكتب الذين تمسَّكوا بمذهبه؛ ليكون على بصيرة في المذهب، فها أنا أكتب أوراقاً بالتماس بعض الإخوان.

(١) باختصار من مقدمة محققه: أحمد بن عثمان المزيد. ـ رسالة دكتوراه ـ، جامعة الإمام بالرياض، ١٤٢٠هـ.

النصيحة والإصلاح والتربية وبثُّ الوعي

في القرآن العظيم ورد قول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[١].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه، وإن خُيِّل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخُلق يفوِّتُ بعض الكسب الشخصي ويضيِّعُ بعض الفرص، فإنما يفوِّتُ الكسب الخبيث ويضيِّعُ الفرص القذرة، ويعوِّض عنهما كسباً طيباً ورزقاً حلالاً، ومجتمعاً متضامناً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام.

والله هو القادر على إنجاح مسعاي في الإصلاح بما يعلم من نيتي وبما يجزي على جهدي[٢].

وذكر الإمام النووي رحمه الله حديث «**الدين النصيحة**» الذي رواه الشيخان وغيرهما، وقال: هذا حديث عظيم الشأن، وعليه مدار الإسلام.

ثم أفاض في شرح أنواع النصيحة، بينها نصيحة عامة المسلمين، وأنها تكون بإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم ويُعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم،

---

(١) سورة هود، الآية ٨٨.

(٢) في ظلال القرآن ١٩٢١/٤.

وسدِّ خلاّتهم، ودفع المضارّ عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم، وتخوُّلهم بالموعظة الحسنة... وغير ذلك من أحوالهم، بالقول والفعل[1]...

وشأن الإصلاح كبير، علاقتهُ بالعلم والحضارة، والنظام والقوة، وهو سببٌ وهدفٌ لكثير من أهل الإسلام، علماء ودعاة، وقادة ومجاهدين.

والتربية أحد أكبر عوامل الإصلاح، بل هو محورهُ وقطب رحاه.

وبثُّ الوعي بهذا كله دافع إيماني وإسلامي قويٌّ لا يُترك، بل هو رسالةٌ للمسلم يحملها بين جنبيه أينما حلَّ وارتحل، يبصِّر بدين الله ويدعو إليه.

وهنا نماذج متعددة في موضوعات متفاوتة تخصُّ هذا الشأن.

- جاء كتاب «**صفة النفاق ونعت المنافقين**» لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) لمعالجة أمراض اجتماعية تفشت في المجتمع، وهي التي تستأصل الأخلاق الحميدة وتقضي على خصال الخير وتضر بالدين والدنيا، قال: فإني لما رأيت الناس وكثيراً منهم استخفُّوا بالاحتراز من النفاق، واستهانوا بأن عُرّفوا... بأخلاق المنافقين واستحسنوها، واستجازوا المداهنة وتألَّفوها... والمراوغة والمخادعة واعتقدوها، أحببت أن أجمع ما يحضرني حفظه... من الآيات الواردة عن الله تعالى في كتابه في ذمّ ذلك...

- وابن قتيبة الدينوري من أئمة الأدب، وهو لغوي عالم، يعتبر أديب أهل السنة في مقابل الجاحظ الأديب المعتزلي.

ويبدو من صنيعه في جمع موسوعته الأدبية الشهيرة «**عيون الأخبار**» أنه قصد بها إضافة إلى التثقف والتأدب: التربية والإصلاح، فهو يقول: إن هذا

---

(١) ينظر صحيح مسلم بشرح النووي ٣٩/٢.

الكتاب وإن لم يكن في القرآن والسنة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام، دالٌّ على معالي الأمور، مرشدٌ لكريم الأخلاق، زاجرٌ عن الدناءة، ناهٍ عن القبيح، باعثٌ على صواب التدبير وحسن التقدير، ورفقِ السياسة وعمارة الأرض. وليس الطريق إلى الله واحداً... وهذه عيون الأخبار نظمتها لمُغْفِلِ التأدب تبصرة، ولأهل العلم تذكرة، ولسائس الناس ومسوِّسهم مؤدِّباً، وللملوك مستراحاً... وهي لَقَاح عقول العلماء، ونتاج أفكار الحكماء...

- وكتب إمام الحرمين الجويني في **«إثبات الاستواء والفوقية»** يقول: هذه نصيحة كتبتها إلى إخواني في الله أهل الصدق والصفاء والإخلاص والوفاء، لما تعيَّن عليَّ محبَّتهم في الله ونصيحتهم في صفات الله عزَّ وجلّ، فإن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه.

- وكتاب **«المقلق»** فريد في فنه وإن كان في الوعظ، صنفه الإمام ابن الجوزي لناحية تربوية إصلاحية لمّا رأى خللاً في الأسلوب والتوجيه، قال:

«فإني رأيت القصّاص قد تركوا ما يصلح ذكره في المجالس من التخويف والترهيب وأخذوا في زخارف باطلة... ومعلوم أن الواعظ طبيب لأمراض الذنوب، ومصلح لأمزجة القلوب... وإني رأيت الأمن وقلة الخوف ومساكنة الطمع أمراضاً قد استولت على النفوس... فجمعت في هذا الكتاب من الأحاديث المخوفات والمحذِّرات من السيئات، والواصفات للعقوبات، والحكايات المزعجات، ما يقلق المطمئن، ويقلقل الساكن، ويلين القلب القاسي، ويجري الدمع الساكن، وينهض المتكاسل المتقاعد.

- وكذا قال ابن رجب في سبب تأليفه كتاب **«التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار»**:

«وقد استخرت الله تعالى في جمع كتاب أذكر فيه صفة النار وما أعد الله فيها لأعدائه من الخزي والنكال والبوار؛ ليكون بمشيئة الله قامعاً للنفوس عن غيها وفسادها، وباعثاً لها على المسارعة إلى خلاصها ورشادها؛ فإن النفوس ـ ولا سيما في هذه الأزمان ـ قد غلب عليها الكسل

والتواني، واسترسلت في شهواتها وأهوائها وتمنت على الله الأماني، والشهوات لا يذهبها من القلوب إلا أحد أمرين: إما خوف مزعج محرق، أو شوق مبهج مقلق».

- وعلى الرغم من أن عمل ابن سمّاك الغرناطي هو جمع ما تفرَّق في كتابه «**الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة**» إلا أنه قصد به تقديم مادَّة لتثقيف المتأدبين من الأمراء وأبناء السلاطين. ويوجز دافعه إلى هذا ويقول: إن في الاطلاع على أخبار المتقدمين ومن سلف من خيار المسلمين لمسلاةً للنفس واستجلاباً لحصول الأُنس، لما يتخلَّلُ ذلك من نوادر الأخبار، ويفيد من المواعظ والاعتبار، ولما يشتمل عليه من ضروب الفوائد، ويوقظ إليه من الهداية إلى جميل السير وكريم المحامد، لا سيما أخبار الملوك والأمراء، والحجاب والوزراء، فأخبارهم تعمر مجالس الأشراف...

- يقول الشيخ عبدالوهاب الشعراني في مقدمة كتابه المشهور «**لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية**»: هذا كتاب نفيس لم يسبقني أحد إلى وضع مثاله، ولا أظن أحداً نسج على منواله، ضمَّنته جميع العهود التي بلغنا عن رسول الله ﷺ من فعل المأمورات وترك المنهيات، وسميته «لواقح الأنوار القدسية في العهود المحمدية». وكان الباعث على تأليفه ما رأيته من كثرة تفتيش الإخوان على ما نقص من دنياهم، ولم أرَ أحداً منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه إلا قليلاً، فأخذتني الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم، فوضعت لهم هذا الكتاب المنبه لكل إنسان على ما نقص من أمور دينه...

- وللحافظ ابن الجوزي رحمه الله قصة طويلة مع ولد له عاص، ليس هذا موضع ذكره، وقد ألَّف رحمه الله رسالة صغيرة ينصح بها ابنه العاصي هذا وسماها «**لفتة الكبد في نصيحة الولد**» وقدم لها بقوله:

فإني لمّا عرفتُ شرف النكاح وطلب الأولاد، ختمتُ ختمة وسألتُ الله تعالى أن يرزقني عشرة أولاد، فرزقنيهم، فكانوا خمسة ذكور وخمس إناث،

فمات من الإناث اثنتان، ومن الذكور أربعة، فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم، فسألت الله تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح، وأن يبلغ به المنى المناجح. ثم رأيت منه نوع توان عن الجد في طلب العلم، فكتبت له هذه الرسالة، أحثُّه بها وأحرِّكه على سلوك طريقي في كسب العلم، وأدلُّه على الالتجاء إلى الموفِّق سبحانه وتعالى، مع علمي بأنه لا خاذل لمن وَفَّق، ولا مرشد لمن أَضَلَّ، لكن قد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التأثُّر والشعور بالمسؤولية

إن التأثر بموقف ما والكتابة نتيجة حدث أو حديث مؤثِّر سلباً أو إيجاباً هو أحد دوافع التأليف في تاريخنا الإسلامي، ويأتي التأليف هنا تنفيساً لما لم يكن قادراً أن يقول كلَّ ما أراد في تلك الآونة، أو تذكر أشياء أخرى فزاد واستدلَّ، أو انتابه شعور بأن عليه أن يبلِّغ ويكتب ما دام قادراً عليه وسيكون له آثاره حاضراً ومستقبلاً.

وقياساً على هذا وغيره ترد الكتابة فيه، وهذه أمثلة لبعض ما ذُكر.

- ذكر الجاحظ أن السبب الذي بعث على جمع نتف من أخبار العرب في حنينها إلى أوطانها وشوقها إلى ترابها وبلدانها ووصفها في أشعارها؛ هو التأثر بحديث ذي شجون مع أحد الملوك، فسمعه يذكر أنه اغترب إلى بلد آخر أفضل من بلده، وكان جليل السلطان، تدين له من عشائر العرب ساداتُها وفتيانُها ـ ومن شعوب العجم أنجادها وشجعانها ـ وأنه يقود الجيوش ويسوسُ الحروب.. قال: فكان إذا ذكر التربة والوطن حنَّ إليه حنين الإبل إلى أعطانها، وكان كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرتُ الثَّغرَ فاضتْ مدامعي ... وأضحى فؤادي نُهبةً للهماهمِ
حنيناً إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاربي ... وحُلَّت بها عني عقودُ التمائمِ
وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضه ... وأرعاهمُ للمرءِ حقَّ التقادمِ

فكان هذا باعثاً لتأليف كتابه «**الحنين إلى الأوطان**».

- وفي «**النصيحة الولدية**» التي نصح بها أبو الوليد الباجي ولديه، أفصح أنه لزمه نصحهما ما داما بلغا حدّاً يفهمان به الوعظ ويتبيَّنان فيه الرشد، قال: «مخافة أن تخترمني منيَّة ولم أبلغ مباشرة تعليمكما وتدريبكما وإرشادكما وتفهيمكما».

- أما علاّمة العراق علي بن محمد سعيد السويدي (ت ١٢٣٧هـ) فقد ألَّف كتابه «**العقد الثمين في بيان مسائل الدين**» بعد إلحاح ومعاناة وشعور بالمسؤولية، قال: «فإني لم أزل أتوقع العثور بمؤلف جامع من الأصول الدينية ما يحتاج إليه كل واقف ضابط لأمهات مسائل الخلاف في المقاصد والمواقف، فلم أرَ إلا ما في أيدي الناس من كتب العقائد، وقد شحنت بأصول الفلاسفة، فلا تفيد إلا الشك والإلباس. وكنت أود أن لو كانت لي طاقة على عمل ما أبين فيه الحال بتحقيق دين الله الحق بأوضح مقال، آتياً من الدلائل الصحيحة والبراهين الصريحة من الكتاب والسنّة، وأقوال سلف هذه الأمة... وأدير فكري فأرى الناس قد ارتبكت عقائدهم بشُبه فلسفية كدحوا بها أذهانهم، وأشغلوا بها أنفسهم ليلهم ونهارهم، وجميع ذلك من تلبيس إبليس، وما ألقاه عليهم من التمويه والتدليس... فكأنهم أُمروا باتباع سنّة أفلاطون، وما له من الأوهام والظنون؛ فهذا ما هداني على عمل هذا المؤلف...».

قيد العلم لعدم النسيان أو الضياع

كان حبُّ السلف للعلم شيئاً يفوق الوصف، وحكاياتهم ومآثرهم في هذا ملأت الكتب والآفاق، حتى اعترف به القريب والبعيد. وقد تفنَّنوا في أساليب الحفظ والتعلم والتعليم بما يملأ النفوس غبطة وفخراً، ويبعثُ على الحبِّ والتعظيم والاقتداء.

وكان قيد العلم شيئاً مألوفاً لدى علماء هذه الأمة، مهما كان شأنه، حتى قال البلوي في كتابه «ألف باء»: ما رأيتُ أحداً ممن لقيته من أهل الآفاق إلا وله تعاليق وأوراق تحتوي على حكايات وأشعار، ورسائل وأخبار!

رحمهم الله وجزاهم عنا خير الجزاء، وأعاننا على إكمال رسالة العلم والحق.

وأفيد القارىء الكريم أن سلفنا عندما يقيِّدون ويكتبون لا يذكرون في مقدِّماتهم كلَّ مرة أنه تمَّ هذا لعدم النسيان أو خشية الضياع، بل قد يذكرون أسباباً موضوعية لذلك، أو حتى لا يذكرون. بل قد يكون أكثر هدفهم هو نشر العلم، لما يترتب على تبليغه من أجر، وما ينطوي على كتمه من إثم. وقد توزَّع هذا في أكثر من سبب ذُكر أو لم يُذكر.

وهذان مثالان ذُكر فيهما السبب.. فأوردتهما.

- كان الهدف من تقييد خواطر ابن الجوزي في «**صيد الخاطر**» هو عدم نسيانها، فقال: لما كانت الخواطر تجولُ في تصفح أشياء تعرضُ لها،

ثم تعرضُ عنها فتذهب، كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا يُنسى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**قيّدوا العلم بالكتابة**». وكم خطر لي شيء فأتشاغل عن إثباته فيذهب، فأتأسَّفُ عليه... فجعلتُ هذا الكتاب قيداً لصيد الخاطر، والله وليُّ النفع، إنه قريب مجيب.

- ويفصح الفتح بن خاقان (ت ٥٢٨هـ) عن هدفه من جمع آداب أهل الأندلس في كتابه «**مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**» بأنه لتجميعه قبل أن يُفقد، حيث لم يسبق له أن جمع، قال:

فإنه كان بالأندلس أعلام فتنوا بسحر الكلام، ولقوا منه كل تحية وسلام، فشعشعوا البدائع ووقوها، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها، ثم هووا في مهاوي المنايا، وانطووا بأيدي الرزايا، وبقيت مآثرهم غير مثبتة في ديوان، ولا مجملة في تصنيف أحد من الأعيان، تجتلي فيه العيون، وتُجتنى منه زهر الفنون، إلى أن أراد الله إظهار إعجازها، واتصال صدورها بأعجازها... إلخ.

نشر العلم والخوف من آثار كتمه

وردت آثار ونصوص جليلة في فضيلة العلم وثواب نشره، والوعيد الشديد لمن كتمه، من ذلك قوله ﷺ: «**مَن كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجاماً من نار**»(١).

وقد مرَّت بي كتب عديدة ذكر أصحابها أن الذي حدا بهم إلى تأليفها هو خوف كتم العلم...

- من ذلك كتاب «**فهرسة ابن خير الإشبيلي**» الذي صرَّح فيه مؤلفه أنه كتبه لأجل ذلك... قال رحمه الله:

استخرتُ الله تعالى وأجبتهم إلى ما سألوني إياه، ولم يسعني الانكفاف عنه إشفاقاً من الوعيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ...﴾ وامتثالاً لأمر رسول الله ﷺ بالإلطاف والتحديث لمن سأل الحديث...

- وقال الإمام المالكي المعروف شهاب الدين القرافي (ت ٦٨٤هـ) في بيان عزمه لكتابه المشهور «**الذخيرة**»:

ولمّا وهبني الله من فضله أن جعلني من جملة طلبته الكاتبين في صحيفته، تعيَّن عليَّ القيام بحقه بحسب الإمكان، واستفراغ الجهد في مكافأة الإحسان...

---

(١) حديث صحيح، ينظر صحيح الجامع الصغير رقم (٦٥١٧).

● وذكر الشيخ محمد معصوم بن سالم السماراني السفاطوني أن همته تقاصرت لشرح الأجرومية، قال: وتفكرت في قول النبيِّ ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»، فشددتُ حبال العزم... فبذلت في ذلك جهدي، مستعيناً بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي.

وسمَّى شرحه: «**تشويق الخلاّن**».

إحياء علم أو فضيلة

وهو ما يتصدَّى له أعلام هذه الأمة: مفكروها ومصلحوها، عندما يرون آثار علم قد اندرس أو كاد، أو فضيلة توارت وهي في المقدِّمات.

والخيرُ في أمة محمد ﷺ وأعلامها حتى يوم القيامة، فقد يبرز من بينها عبدٌ أراد الله به خيراً فيكشفُ عن علم ويشير إلى أهمية فضيلة، أو غيورٌ على سنّةِ رسول الرحمٰن يرى احتضارَها، فلا يزال يكتب فيها ويثير إيمان المسلمين ويشدُّ هممهم حتى يحييها...

- وقد رأى ابن الداية، وهو أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٤٠هـ)، وهو صاحب منطق وهندسة، أن الناس يثنون على عمل المعروف وإنشاء الكرم والسخاء، وينسون أمراً أساسياً في الأخلاق الاجتماعية، وهو رد المعروف والمكافأة به، وحسن عقبى ذلك، فاضطرَّ أن يؤلف كتاباً في هذا الموضوع بعنوان «**المكافأة وحسن العقبى**»، كتب فيه «أخباراً في المكافأة على الحسن والقبيح، تنعم الخاطر، وتقرِّب بغية الراغب». وهذا لفتة مقنعة منه.

- أما سبب قيام الإمام الغزالي بتأليف كتابه العظيم «**إحياء علوم الدين**» فهو ما رأى من خلل في المنهجية العلمية آنذاك، والاهتمام بما له علاقة بالمنصب والشهرة والمال والمحاججة، «فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكماً وعلماً وضياءً ونوراً وهدايةً ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً».

قال: «ولما كان هذا ثلماً في الدين ملمّاً وخطباً مدلهمّاً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً؛ إحياء لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمباهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين».

- وقال العلاّمة الشاطبي في إجازته لعلم الدين السخاوي، الذي شرح «**حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المعروفة بالشاطبية**»: . . . عملها رغبة في ثواب الله الكريم، وحرصاً على إحياء العلم الذي تضمَّن كتاب «التيسير» الذي عُني بجمعه أبو عمرو الداني.

- وهناك كتاب رائع يعرفه أهل العلم وعشاق الجهاد، هو «**مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام**» في فضل الجهاد وأجر المجاهدين، ومؤلفه محيي الدين أحمد بن إبراهيم النحاس (ت٨١٤هـ) فقيه شافعي ومجاهد معروف، قُتل شهيداً في معركة مع الفرنج، مقبلاً غير مدبر، كما يقول ابن حجر رحمه الله، يقول في كتابه هذا جزاه الله خيراً:

لمّا رأيتُ الجهاد في هذا الزمان قد درست آثاره فلا تُرى، وطُمست أنوارهُ بين الورى، وأعتم ليلُه بعد أن كان مقمراً، وأظلم نهاره بعد أن كان نيِّراً، وذوىٰ غصنه بعد أن كان مورقاً، وانطفأ حسنُه بعد أن كان مشرقاً، وقُفلت أبوابه فلا تُطرق. . . وأهمل الناسُ الجهاد كأنهم ليسوا به مخاطَبين، فلا تجدُ إلا من طوى بساط نشاطه عنه، أو اثّاقل إلى نعيم الدنيا الزائل رغبة عنه، أو تركه جزعاً من القتل وهلعاً، أو جهل ما فيه من الثواب الجزيل. . . أحببت أن أوقظ الهممَ الرقَّد، وأنهض العزم المقعد، وألّين الأسرار الجامدة، وأبيِّن الأنوار الخامدة، بمؤلَّف أجمعه في فضل أنواع الجهاد. . .

- وعالم من صعيد مصر أحب بلده وعلماءه فأحبَّ أن يحيي مآثرهم بذكر تراجمهم، هو الشيخ جعفر بن ثعلب الأدفوي الشافعي (ت ٧٤٨هـ) في كتابه «**الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد**». . وكان مما قاله في ذلك:

ولمّا كان صعيد «قوص» الموضع الذي منه نشأتي، والمكان الذي إليه نسبتي، والمحلَّة التي فيها عشّي الذي منه درجت... وأرضه الأرض التي أولُ أرضٍ مسَّ جلدي ترابها... وحلا لقلبي أرجاؤها ورحابها... فأحببت أن أحيي ما مات من علم علمائها، وأنشر ما انطوى من فضل فضلائها، وأظهر ما خفي من نثر بلغائها، ودرسَ من نظم شعرائها، وأذكر ما نسي من مكارم كرمائها وكرامة صلحائها، فالإنسان يُكرم بكرامة أهله كما يعظم بنبله وفضله.

- وقد ارتكب أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي، المعروف بابن الأبّار (ت ٦٥٨هـ) ذنباً أثار عليه غضب السلطان الحفصي أبي زكريا وغيَّر قلبه عليه، فألَّف هذا الكتاب مريداً بذلك أن يضرب له الأمثال على حلم الملوك وعفوهم عن أخطاء كُتّابهم، فراح يبحث عن هذه الأمثال في تراجم الكتّاب في الشرق والغرب الإسلاميين، ويتقصّاها ويجمعها، ويبرز في كل مثلٍ إقالة الذنب، ليحثَّ بذلك السلطان على إقالة ذنبه، ومن هنا جاء تصنيف كتابه «**إعتاب الكتّاب**» يعني إعطاؤهم العُتبى بالرضا عنهم والعفو عن زلاتهم وإعادة الحظوة والحقوق إليهم.

وقد عفا عنه السلطان وأعاده إلى وظيفته، لكن عندما تولى ابنه السلطنة بعده أمر بضربه بالسياط وقتله وإحراق مؤلفاته، حيث وشى به الحُسّاد بعد أن عُزيت إليه أبيات في هجائه!

- وللمصنف الكبير العالم المؤرخ شمس الدين محمد بن علي بن طولون (ت ٩٥٣هـ) كتاب رائع بعنوان «**كتاب الأربعين في فضل الرحمة والراحمين**»، قال في مقدمته:

بعثني إلى تخريجها أن الرحمة قد قلَّت، وذهبت من الخلائق وولَّت، وذلك علامةُ الغضب والمقت. والله أسألُ العصمة منها في كل وقت.

فهو يهدف من وراء جمع وتخريج أحاديث الرحمة والراحمين إلى إحياء هذه الفضيلة في قلوب المسلمين بعد أن لاحظ انحسارها، والكتاب كله في فضل هذه الخصلة وثوابها العظيم.

نشر الأمن والطمأنينة والمواساة

وهو نوع فريدٌ من الكتابة، وباعث نادر على التأليف، ونفوسٌ طيبة وحسّاسة تستشعر الخوف والمسؤولية والحرص على المسلمين في أمنهم ومعاشهم وآخرتهم، تنقلبُ آهاتهم وجراحاتهم إلى حبر يمدُّون به أقلامهم ويسطّرونها لإخوانهم المسلمين.

- وكان سبب تأليف ابن رجب كتابه «**فضائل الشام**» هو بعث الأمن والطمأنينة في نفوس المسلمين بعد أن تعرضت دمشق لويلات أيام دخول العثمانيين إليها ونزع السلطة ممن قبلهم، وأن الله تعالى يصون هذا البلد ويحميه، فقال:

وقد جمعت في هذا الكتاب ما ورد في حماية الشام وصيانتها بما فيها من الإيمان والإسلام؛ تطييباً لقلوب المؤمنين وتسكيناً لها مما حدث بالشام من الحوادث المزعجة في سنة **٧٩١**هـ...

- وكان الداعي لأن يؤلف ابن ناصر الدين الدمشقي كتابه «**برد الأكباد عند فقد الأولاد**» الذي طبع طبعات عديدة على الرغم من صغر حجمه، هو مشاركة المصاب في حزنه والتخفيف عنه. قال في المقدمة: فهذه تذكرة لأولي الألباب، وتسلية لكل مؤمن مصاب، تشرح صدره، وتجلب صبره، وتهوّن خطبه... كتبتها... لغرض اقتضاه الحال، حين بلغني موت ولد بعض السادات المحسنين والإخوان الأعزين الأكرمين...

حبُّ العلم والتأليف

حبُّ العلم والتأليف ميزة ظاهرة في هذه الأمة؛ لكثرة ما ورد فيه من نصوص وآثار وأخبار تحبِّبُ فيه ويُجزل عليه الأجر.

وكثيرٌ من العلماء والمؤلفين لا يقدرون على فراق الكتاب، بل يجدونه أحسن صديق وأوثق نديم وآنس صاحب.

أما القلم فقد صار السلاح الذي لا ينزلُ الجندي إلى المعركة إلا به، وهو إما في جيبه أو في يده أو على أوراقه.

والكتابةُ حبّاً في العلم والتأليف لا ينفكُّ عنه كثير من أصحاب هذا الشأن، ويجدونها أقرب وظيفة إليهم، فهي أحد أنواع التبليغ المأمور به، وأحد وسائل نشر العلم، وأحد عناصر تبرئة الذمَّة به.

والملاحظ أن المؤلف إذا أقدم على تأليف ما، لا يذكر فيه أن باعثه عليه هو حبُّ التأليف، لأن هذا شيءٌ مركَّزٌ فيه، أو لا فائدة من ذكره، ولا يهمُّ القارىء بيانه، وإنما يذكر دواعي أخرى لتقديم مؤلَّفه.

- ومما وضح فيه سبب التأليف هنا ما ذكره محمد بن الحسن بن حمدون في كتابه الضخم «**التذكرة الحمدونية**» الذي صدر محققاً في (١٠) أجزاء، من أنه جمع مادته «حين بُدِّلَ الصفو بالكدر، وغيرت بني الأيام الغِيَر... وخان الإخوان، وأوحش الأنيس، وخيف الجليس، وصار مكروه العزلة مندوباً، ومأثور الخلطة محظوراً...

فوجدتُ الكتاب خير صاحب وقرين، وأفضل رفيق وخدين.. فهو لمن وفّق للاعتزال أسلم خليل، وأكرم أخٍ برٌّ وَصول...

● وجمع الحافظ ابن حجر العسقلاني معجم شيوخه «**المجمع المؤسس للمعجم المفهرس**» سيراً على عادة العلماء، فقال رحمه الله:

إن كثيراً من سلف المحدِّثين اعتنوا بجمع أسامي شيوخهم، وتدوين أخبار كبارهم، فتغايرت مقاصدهم في الترتيب، فرأيت أن أحذو حذوهم وأسير تلوهم، لأتذكر عهدهم وأجدِّد لهم الرحمة بعدهم، فجمعت أسامي شيوخي على المعجم مرتباً...

الانشغال بأفضل العلوم وأهم الأعمال

هناك علمٌ يفضلُ على علم، وأعمال تفضلُ على أعمال، والانشغالُ بها على ما رتَّبه الشارع فيه أجرٌ أكبر ومآله أحسن.

وقد يبدو موضوعٌ في حينه أهمَّ إذا كان المجتمع محتاجاً إليه، كما يكون ماءُ السبيل أفضلَ في مكان ينقطعُ فيه الماء.

وقد انشغل كثير من العلماء والكتّاب بفضائل العلوم وصنَّفوا في أهمها؛ إما لأهميتها وحاجة المجتمعات إليها، أو لما يترتب عليها من أجرٍ أكبر وثواب أعظم.

● ونبدأ بأعظم تفسير وأجلِّه لشيخ المفسرين الإمام الطبري الذي سمّاه «**جامع البيان في تفسير القرآن**»، وقال:

إن أحق ما صُرفت إلى علمه العناية وبلغت في معرفته الغاية، ما كان لله في العلم به رضا، وللعالم به إلى سبيل الرشاد هدى، وإن أجمعَ ذلك لباغيه كتاب الله الذي لا ريب فيه، وتنزيله الذي لا مرية فيه، الفائز بجزيل الذخر وسنيِّ الأجر تاليه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ونحن في شرح تأويله وبيان ما فيه من معانيه منشؤون إن شاء الله ذلك كتاباً مستوعباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعاً، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً...

● ويقول الإمام الغزالي في كتابه «**المستصفى من علم الأصول**»:

ولأجل شرف علم الفقه وسببه وفَّر الله دواعي الخلق على طلبه، وكان العلماءُ به أرفع العلماء مكاناً وأجلَّهم شأناً وأكثرهم أتباعاً وأعواناً.

- وذكر الإمام **القرطبي**، المتوفى سنة ٦٧١هـ سبب إقدامه على **تفسير** كتاب الله العظيم بقوله:

لمّا كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع... رأيتُ أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مُنَّتي [أي قوَّتي]... وعملته تذكرة لنفسي وذخيرة ليوم رمسي، وعملاً صالحاً بعد موتي.

- كما كان الدافع إلى وضعه كتاب «**التذكار في أفضل الأذكار**» ـ يعني القرآن الكريم ـ هو كما وضح في قوله: لمّا كان القرآن الذي هو كلام ربِّنا ومعجزة نبيِّنا ومنبع العلوم ومعدن المعارف والفهوم، كان على العاقل العالم المؤمن المسلم الدِّين الموحِّد قراءته ودراسته وتفهُّمه وتلاوته، وعلى قدر قراءته وتلاوته وتفهُّمه يكون عمله وإيمانه وإسلامه وتوحيده وفضله كله. وإذا كان ذلك كذلك، كان قراءة القرآن أفضل الأعمال وأسنى المقامات والأحوال وأشرف الأذكار والأقوال... فرأيتُ أن أكتب في ذلك كتاباً وجيزاً يحتوي على فضل القرآن وقارئه ومستمعه والعامل به وحرمته...

- وأشهر كتاب أو أكثره تداولاً بعد القرآن الكريم، أعني «**رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ**» للإمام النووي رحمه الله، وضعه لأمر أساسي، وهو أن الإنسان خُلق أصلاً للعبادة، «فحقٌّ على المكلَّف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار، ويسلك مسلك أولي النهى والأبصار، ويتأهَّب لما أشرتُ إليه، ويهتمَّ بما نبَّهتُ عليه. وأصوبُ طريقٍ له في ذلك وأرشد ما يسلكه من المسالك التأدُّب بما صحَّ عن نبيِّنا ﷺ... فرأيت أن أجمع مختصراً من الأحاديث الصحيحة مشتملاً على ما يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة، ومحصِّلاً لآدابه الباطنة والظاهرة.

وبيَّن قبله أمر العبودية وقال: ... وهذا تصريحٌ بأنهم خُلقوا للعبادة، فحقَّ عليهم الاعتناء بما خُلقوا له والإعراضُ عن حظوظ الدنيا بالزهادة...

● وفي كتابه القيِّم «**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**» يرى ابن القيم رحمه الله، أن أساليب الانشغال في الحياة ـ يعني سواء كان تأليفاً أو طلب علم أو غيره ـ هو أن يكون مصاحباً بثلاثة أشياء، مستلهماً ذلك من سورة (العصر): الإيمان، والعمل الصالح، والتوصية بالحق والصبر عليه.

ولذلك قال: كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، بل أنفاسه، فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهُّمه وتدبُّره، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه وصرفِ العناية إليه، والعكوف بالهمَّة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل إلى سبيل الرشاد.

● كما أشار ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) إلى أهمية الاشتغال بعلوم القرآن من خلال كتابه «**النشر في القراءات العشر**» الذي يعتبر أجلَّ كتاب في موضوعه، قال في مقدِّمته:

... فإن الإنسان لا يَشرفُ إلا بما يَعرف، ولا يَفْضُل إلا بما يَعْقِل، ولا يَنجُب إلا بمن يصحب. ولمّا كان القرآن العظيم أعظم كتاب أُنزل، كان المنزَل عليه ﷺ أفضل نبيٍّ أُرسل، وكانت أمّته من العرب والعجم أفضل أمّة أُخرجت للناس من الأمم، وكانت حملته أشرف هذه الأمّة، وقرّاؤه ومقرئوه أفضل هذه الملّة...

● وكان الدافع وراء أعظم شرح لصحيح الإمام البخاري «**فتح الباري**» هو ما رُزق هذا الكتاب من قبول لدى الخاص والعام، وما استأثر به منهج الإمام البخاري في التصحيح والتخريج من مطاوعة وتسليم لدى المطاوع والمفارق، قال شارحه الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): «وقد استخرت الله تعالى في أن أضمَّ إليه [أي إلى الصحيح] نبذاً شارحة لفوائده، موضحة لمقاصده، كاشفة عن مغزاه، في تقييد أوابده واقتناص شوارده، وأقدِّم بين يدي ذلك مقدمته في تبيين قواعده وتزيين فرائده، جامعة وجيزة...».

ويعني بهذه المقدمة «هدي الساري: مقدمة فتح الباري» الذي نقلت من أوله الكلام السابق.

● وفي هدوء عالم وسكينة خبير مُلىء علماً، يقول ابن عبدالهادي الحنبلي (ت ٩٠٩هـ) في سبب تأليفه كتابه الجميل «**مراقي الجنان بالسخاء وقضاء حوائج الإخوان**»:

فإني عزمتُ على أن أجمع نبذة في السماحة وقضاء الحوائج؛ لأن ذلك أفضل ما تعاطاه الإنسان!

● وكان الدافع لشاه ولي الله الدهلوي، المتوفى سنة ١١٧٦هـ، لتأليف كتابه «**حجة الله البالغة**» المشهور جداً، هو لأنه أهمُّ علم يُبحث فيه، وهو معرفة أسرار الدين ليكون الإنسان على بصيرة فيما يعتقده، فيقول رحمه الله:

إن أدقَّ الفنون الحديثية بأسرها عندي، وأعمقها محتداً، وأرفعها مناراً، وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى، وأعلاها منزلة، وأعظمها مقداراً، هو علم أسرار الدين، الباحث عن حِكَم الأحكام ولِمِّيَّاتها [أي حقائقها]، وأسرار خواص الأعمال ونِكاتها، فهو ـ والله ـ أحقُّ العلوم بأن يصرفَ فيه من أطاق نفائس الأوقات، ويتخذه عُدَّةً لمعاده بعد ما فُرِضَ عليه من الطاعات، إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع، وتكون نسبته بتلك الأخبار كنسبة صاحب العروض بدواوين الأشعار، أو صاحب المنطق ببراهين الحكماء، أو صاحب النحو بكلام العرب العرباء، أو صاحب أصول الفقه بتفاريع الفقهاء... وبه يصير مؤمناً على بيِّنةٍ من ربه...

التعليم

لا يخلو عصرٌ من كتب تعليمية في أنواع العلوم النظرية والتطبيقية، حيث توضع كتب مخصوصة لذلك بأساليب معينة، قد تميِّزها عن غيرها بترتيب أبوابها وفصولها وأسلوب تناولها. وقد تكون متوناً أو منظومات، أو حواشي وتعليقات، أو أسئلة وأجوبة.

كما يُستفاد من مقدِّمات كتب أخرى أنها وُضعت لتعليم الناس وتفهيمهم، حسب الوقت أو الحاجة أو مكنون العلم الذي يُبحث فيه.

- وقد ألَّف القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) رحمه الله كتابه «**الإعلام بحدود قواعد الإسلام**» للمتعلمين من أطفال المغرب، وقصد فيه إلى تفسير قواعد الإسلام الخمس في لغة واضحة سهلة، ابتعد فيها عن كثير من التعابير والجمل الاصطلاحية، بحيث أصبحت غير بعيدة عن مدركات الأطفال الذين أُلِّفت لهم[1].

- وألَّف عبدالرحمٰن بن محمد بن عسكر البغدادي (ت ٧٣٢هـ) كتابه «**إرشاد السالك إلى أشرف المسالك**» (في الفقه المالكي)، استجابةً لطلب ابنه، قال: فإن الولد السعيد وفَّقه الله تعالى لمّا راهق سنَّ الرشد، وناهز أن ينتظم في سلك أهل السداد، سألني أن أضع له كتاباً يكون ـ مع كثرة معانيه ـ وجيز اللفظ، سهل التناول والحفظ...

(١) من مقدمة محمد بن تاويت الطنجي للكتاب.

● وصنف ـ كذلك ـ أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت ٧٤١هـ) كتابه «**تقريب الوصول إلى علم الأصول**» للتعليم والتفهيم، قال:

وإني أحببت أن يضرب ابني محمد ـ أسعده الله ـ في هذا العلم بسهمه، فصنفت هذا الكتاب برسمه، ورسمته باسمه، لينشط لدرسه وفهمه، وعولت فيه على الاختصار والتقريب، مع حسن الترتيب والتهذيب...

● وصنف الفقيه الحنفي منصور بن يونس البهوتي (ت ١٠٥١هـ) كتابه «**عمدة الطالب في شرح نيل المآرب**» لتعليم المبتدئين، قال رحمه الله:

فهذا مختصر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، تشتد إليه حاجة المبتدئين، سألنيه بعض المقصّرين والعاجزين، جعله الله خالصاً لوجهه الكريم...

● وأقدم ابن كثير رحمه الله تعالى على «**تفسير القرآن العظيم**» لتعليم المسلمين وتفهيمهم معناه، لأنه واجب العلماء العارفين بكتاب الله تعالى.

قال: ... فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾... فذمَّ الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أُمروا به من اتباع كتاب الله. فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عمّا ذمَّهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أُمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهُّمه وتفهيمه...

تكملة نقص.. واستدراك ما فات

قد يبدأ مؤلفٌ بكتاب فيخترمه اليقين ولا يكمله، فيأتي من يكمله من بعده.

وقد ينهيه ولكن تفوته أشياء أساسية أو فرعية، فيأتي من يتصدَّى له ويكمل نقصه ويخرج بعملٍ أتمَّ وأكمل.

وقد يدوِّن أحدهم حوادث عصر ويسرد تراجم أعلامه، ويأتي مَن بعده فيُتمُّ ما استجدَّ في عصره من هذه الأمور.

وقد يستدرك المؤلف على نفسه فيصدر كتاباً آخر في موضوعه، قد يحتوي على ما استدركه وحده، أو يصدره كاملاً: الأصل مع المستدرك، في عمل جديد. وقد يعتبر العمل الأول مسودة، أو نشرة أولى لعمله، بعد إيراد مستدركه.

والأمثلة على ذلك كثيرة.

- فهذا كتاب «**الزيادات**» في فروع الفقه الحنفي، للإمام محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ) من أبدع كتبه وأدقِّها، ألَّفه بعد كتابه «الجامع الكبير» استدراكاً لما فاته فيه من مسائل.

ويُقال إنه فرَّعها تفريعاً لبيان قدرته على ذلك، بعد أن فرَّعها أبو يوسف في مجالس إملائه، وذكر أنه يشقُّ على مؤلفه تفريعه!

- ومن هذا البابِ الكتابُ الرائع «**المستدرك على الصحيحين**» للحاكم النيسابوري.

- و«**الأحاديث المختارة مما لم يخرِّجه البخاري ومسلم في صحيحيهما**» لضياء الدين المقدسي.

- و«**التخريج لصحيح الحديث عن الشيوخ الثقات على شرط كتاب محمد بن إسماعيل البخاري وكتاب مسلم بن الحجاج القشيري أو أحدهما**» مما أخرجه البرقاني من أصول أبي الحسن المجهز السفار.

وغيرها من المستخرجات الحديثية.

- واستدرك المؤرخ «ابن زولاق» على مجموعة من الكتّاب بأنهم ألّفوا أو رووا أخبار «عقلاء المجانين» لكنهم لم يرووا شيئاً من أخبار سيبويه المصري، الذي لا يقلُّ عن هؤلاء «العقلاء» أو «المجانين» أهمية، بل استفاضت أخباره مع الأمراء والوزراء والعلماء في مصر في القرن الرابع الهجري... مما اضطره إلى إفراد كتاب فيه بعنوان «**أخبار سيبويه المصري**».

- ويقوم ابن وافد، وهو عبدالرحمٰن بن محمد، المتوفى سنة ٤٦٧هـ، في كتابه «**الأدوية المفردة**» بالجمع بين كتابَي «دياسقوريدوس» و«جالينوس» في الصيدلة، لأنه رأى أن كتاب كل منهما يكمل الآخر، فأحدهما ـ وهو الأول ـ ذكر الدواء بهيئته وحليته ومنفعته، والآخر ذكره بجوهره وطعمه وكيفيته وقوته ومنفعته في الأكثر، فهما «مفتقران إلى الجمع بينهما» كما قال في المقدمة. ثم إنه انتقى وأضاف، ووصف ما لم يصفا... فصار عمله متميزاً مكتملاً.

- وقد عمد القاضي أبو بكر عتيق بن أحمد الوادي آشي (ت ٦٩٨هـ) إلى تأليف كتابه «**نزهة الأبصار في فضائل الأنصار**» لما رأى بعض المتأخرين نقص ذكر الأنصار بعد ذكر المهاجرين، فقصد «تتميم ذلك القصد، واستدراك ما أغفله في ذلك الحدّ».

- ومن الكتب النادرة في هذا الباعث، «**كتاب الحيطان**» الذي وفقني الله لتحقيقه.

فإن مؤلفه الأول هو «المرجي الثقفي» حيث لم يتجاوز عمله جمع مسائل دعوى الحيطان والطرق ومسيل المياه، فقام الدامغاني الكبير بشرحه، وجاء الصدر الشهيد برهان الأئمة وهذَّبه ونقّحه وذكر التفاصيل وتمَّمها، ثم زاد ابن قطلوبغا في أبوابها بعض ما استجد من مسائل ونبَّه إلى أقوال أخرى...

- وكتاب «**قطف الأزهار في كشف الأسرار**» للسيوطي، هو في لغة القرآن وبلاغته، صنَّفه ليكمل به جوانب أخرى لم يتطرَّق إليها في مؤلفاته الأخرى العديدة التي كتبها في علوم القرآن وتفسيره، فقد ذكر كتابه ترجمان القرآن، ومعترك الأقران، والإكليل في استنباط التنزيل، وأسباب النزول... وغير ذلك... وقال في الأخير: وهذا كتاب شفَّعت به تلك، ونظمته معها في سلك، أسرار التنزيل... فإذا تمَّ هذا الكتاب وانضمَّ إلى تلك الكتب استغنى بها محصولها عن جميع التفاسير، ومع ذلك فلا أدَّعي الاستيعاب!
- وذكر المناوي أن الباعث على تأليف كتابه «**الجامع الأزهر في حديث النبيّ الأنور**»، أن السيوطي «ادَّعى أنه جمع في كتابه «الجامع الكبير» الأحاديث النبوية، مع أنه قد فاته الثلث فأكثر، وهذا فيما وصلتْ إليه أيدينا بمصر، وما لم يصل إلينا أكثر، وفي الأقطار الخارجة عنهما من ذلك أكثر، فاغترَّ بهذه الدعوى كثير من الأكابر، فصار كلُّ حديثٍ يُسألُ عنه ويريد الكشف عليه راجع الجامع الكبير، فإن لم يجده فيه غلب على ظنه أنه لا وجود له، فربما أجاب بأنه لا أصل له، فعظم بذلك الضرر، لكون النفس إلى الثقة بزعمه الاستيعاب وتوهم أن ما زاد على ذلك لا يوجد في كتاب، فأردتُ التنبيه على بعض ما فاته في هذا المجموع...».

التوضيح والبيان

يكون هذا تفسيراً للقرآن العظيم، لتوضيح معناه، وبيان مدلوله، والإرشاد إلى مقاصده.

وشرحاً للأحاديث النبوية الكريمة وبيان أحكامها.

وشرحاً لمتون فقهية أو لغوية أو منظومات في علوم القرآن والحديث أو ما شابهها.

وتعليقاً وحاشية على شرح، فيكون شرحاً على شرح...

وتوضيحاً لموضوع وإعطائه حقَّه من البيان والتبيين.

وهذا الدافع واضح لا يحتاج إلى أمثلة كثيرة، وسأكتفي بإيراد نماذج لبعض الموضوعات، ويُقاسُ عليها غيرها.

- ذكر أبو سعيد أحمد بن محمد بن الأعرابي (ت ٣٤٠هـ) في كتابه «**معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين**» سبب تأليفه له فقال: ... إن أهل العلم اختلفوا في معنى الزهد قديماً وحديثاً، وقالوا فيه أقاويل أنا أذكر ما انتهى إليَّ منها، ومبيِّنٌ من أقاويلهم ما وصلتْ إلى علمي.

  وذكر (٤٦) وجهاً، وزاد من عنده...

- وقد اجتهد الإمام الخازن ليكون تفسيره جامعاً وممتعاً، وهو المسمى «**لباب التأويل في معاني التنزيل**»، فقد جعل أصله المعتمد عليه تفسير البغوي، واصفاً إياه بأنه من أجلِّ المصنَّفات في علم التفسير وأعلاها

وأنبلها. ثم ذكر أنه أحبَّ أن ينتخبَ من غرر فوائده ودرر فرائده وزواهر نصوصه وجواهر فصوصه مختصراً جامعاً لمعاني التفسير، ولباب التأويل والتعبير، حاوياً لخلاصة منقوله، متضمِّناً لنكته مع أصوله، مع فوائد نقلها من كتب التفاسير...

- ويلجأ السمين الحلبي أحمد بن يوسف (ت ٧٥٦هـ) رحمه الله، إلى تأليف كتاب جليل في تفسير مفردات القرآن الكريم مع تفصيل مفيد، سمّاه «**عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ**». وقد ذكر أعمال مَن قبله «غير أنهم لم يتمِّموا المقصود من ذلك؛ لاختصار عبارتهم، وإيجاز إشارتهم». وقام بما يكمل مقاصدهم...

- وقد بادر الإمام السهيلي إلى تأليف كتابه المعروف «**الروض الأنف**» وهو شرح للسيرة النبوية الكريمة، ليفسِّر ما جاء فيها من غريب ويبيِّن ما كان غامضاً... قال رحمه الله:

فإني انتحيت في هذا الإملاء بعد استخارة ذي الطول، والاستعانة بمن له القدرة والحول، إلى إيضاح ما وقع في سيرة رسول الله ﷺ التي سبق إلى تأليفها أبو بكر محمد بن إسحاق المطلبي، ولخصها عبدالملك بن هشام المعافري المصري النسابة النحوي، مما بلغني علمه، ويسَّر لي فهمه، من لفظ غريب، أو إعراب غامض، أو كلام مستغلق، أو نسبٍ عويص، أو موضع فقه ينبغي التنبيه عليه، أو خبر ناقص يوجد السبيل إلى تتمته...

- وكتاب «**مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**» لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) الذي هو من أوسع الكتب النحوية انتشاراً، وقد تداوله طلبة العلم على مدى قرون، كتبه لأن به يتيسَّر «فهم كتاب الله المنزل، ويتَّضح به معنى حديث نبيِّه المرسل، فإنهما الوسيلة إلى السعادة الأبدية، والذريعة إلى تحصيل المصالح الدينية والدنيوية».

قال: وأصلُ ذلك الإعراب، الهادي إلى صوب الصواب.

وقد ألَّف أصله في مكة المكرمة فضاع، ولمّا جاورها مرة أخرى ألَّف هذا الكتاب.

- ويتحدث ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) رحمه الله عن كتابه «**جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**» فيقول: . . . فاستخرتُ الله تعالى في جمع كتاب يتضمن شرح ما يسَّره الله تعالى من معانيها (يعني الأحاديث) وتقييد ما يفتح به سبحانه من تبيين قواعدها ومبانيها. . .

- والفقيه الشافعي الجليل محمد الشربيني الخطيب، استخار الله تعالى في شرح متن المنهاج للإمام النووي، فشرح الله صدره لذلك، وألَّف كتابه «**مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**» وقد كُتب له القبول وانتشر.

قال: شرعتُ في شرحٍ يوضِّح من معاني مباني منهاج الإمام النووي ما خفا، ويُفصح عن مفهوم منطوقه بألفاظٍ تُذهب عن الفهم جفا، وتبرز المكنون من جواهره، وتظهر المضمر في سرائره، خال عن الحشو والتطويل، حاو للدليل والتعليل، مبيِّن لما عليه المعوَّل من كلام المتأخرين والأصحاب، عمدة للمفتي وغيره ممن يتحرَّى الصواب. . .

- ويلجأ الشيخ عبدالوهاب الشعراني إلى تأليف كتاب خطير أو حسّاس ليوضِّح كلمات مموَّهات صدرت عن شيوخ متصوِّفة، فأجاب عن بعضها، وتوقف في غيرها، ونقد بعضها الآخر، وهو كتاب «**الفتح في تأويل ما صدر عن الكمَّل من الشطح**»، قال:

فهذه رسالة وضعتها بمشيئة الله تعالى في تأويل بعض كلمات صدرت من بعض الكُمَّل من العارفين رضي الله عنهم أجمعين، وأشكل معناها على بعض الفقراء القاصرين، فأوَّلتها لهم حتى تقبلها عقولهم، ولا تنفر من طريق العارفين، فيخسروا مع الخاسرين!

الانتخاب والاختصار والوسطية

إذا كان الدافع السابق شرحاً لمستغلق، وتفصيلاً لإيجاز، فإن هذا الدافع اختصار لشرح مسهب، وتلخيص لإيضاح مفصَّل، وانتخاب واختيار لكتب وموضوعات، ولكن لا ليصل به إلى درجة المتون والمنظومات إلا بقصد الحفظ والتعليم، بل الهدف هو التقليل من الحجم مع التسهيل والتقريب لئلا يُملَّ أو يُترك.

وإذا كان المختصر إلى هذا الحدّ، فإن كثيراً من الكتّاب يعمد بنفسه إلى تنظيم مؤلفه وترك الحشو فيه لئلا يلجأ إلى اختصاره، يعني أن يكون وسطاً بين الشرح والمتن.

وهذا إن عُدَّ من أنواع التأليف، فإنه ناسب ذكره هنا قياساً عليه، لا أنه أحد أسبابه كلّما ذُكر. ويعني أنه قد تكون الوسطية والإتقان سبباً للتأليف، فقد يطّلع بعضهم على مجموعة كتب في موضوع معين ولا يعجبه منها شيء، فيدفعه هذا الأمر إلى تأليف عمل جديد يكون أفضل منها. وقد يبدو هذا واضحاً من عمل ابن حزم الآتي.

ويدخل في هذا الأمر: المنتخبات والمختارات الحديثية وأمثالها.

- كـ«**انتخاب السِّلَفي من أصول كتب الشيخ أبي الحسن الطيوري**».
- و«**المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق للخرائطي**» له أيضاً.
- و«**أحاديث منتقاة من أحاديث أبي القاسم الطبراني**» لابن مردويه.

- و«**المنتخب من زوائد البزار على الكتب الستة ومسند أحمد**» لابن حجر العسقلاني..

وهذه نماذج من المختصرات وما إليها، وهي كثيرة.

- «**المختصر الكافي**» للحاكم الشهيد (ت ٣٣٤هـ) كتاب في الفقه الحنفي، قال مؤلفه: أودعتُ كتابي هذا معاني كتب محمد بن الحسن المبسوطة، ومعاني جوامعه المؤلفة، مع اختصار كلامه، وحذف المكررات من مسائله، قاصداً تسهيل سبل الراغبين في حفظه، وتخفيف المؤونة عليهم في كتابته وقراءته، وحمله في السفر والحضر.
- وكان العلاّمة عبداللطيف البغدادي، المتوفى سنة ٦٢٩هـ، قد صنَّف كتابه الكبير في «**تفسير غريب الحديث**»، فلخَّص وجرَّد منه الكلمات اللغوية دون البسط والتعليل... قال: بل أذكر الكلمة اللغوية وتفسيرها بأقل ما لا بدَّ منه، ليسهل حفظه ويقرب تناوله... فإن حفظ المختصرات أسرع، واستدامة تكرارها أيسر...
- وهذا فقيه شافعي من علماء القرن السابع الهجري، اسمه تقي الدين أبو بكر بن محمد الحسيني الحصني، يعمد إلى تأليف مختصر في الفقه الشافعي، هو «**كفاية الأخيار في حلّ غاية الاختصار**» ويوضح سبب هذا الاختصار فيقول:

اعلم أن طلاب العلم مختلفون باختلاف مقاصدهم، وهممهم مختلفة باختلاف مراتبهم، فهذا يطلب الغوص في البحر ونحوه لنيل الدرر الكبار، وهذا يقنع بما يجد في غاية الاختصار. ثم هذا القانع صنفان: أحدهما ذو عيال قد غلبه الكدّ، والآخر متوجه إلى الله تعالى بصدق وجدّ، فلا الأول يقدر على ملازمة الخلق، والسالك مشغول بما هو بصدده ليله ونهاره مع نفسه في قلق. فأردتُ راحة كل منهما ببقاء ما هو عليه وترك سعي كل منهما فيما تدعو الحاجة إليه...

- ولكتاب «الكمال في أسماء الرجال» قصة طويلة وجليلة في الزيادة والاختصار، ويهمنا هنا ما قام به الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه

«**تهذيب التهذيب**» الذي هذَّب فيه «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للحافظ المزي، الذي صدر محققاً في (٣٥) مجلداً، بيد أنه أطال وأطاب كما يقول الحافظ ابن حجر، ووجد مكان القول ذا سعة فقال وأصاب، ولكن قصرت الهمم عن تحصيله لطوله، فاقتصر بعض الناس على الكشف من الكاشف الذي اختصره منه الإمام الذهبي.

قال: ولمّا نظرت في هذه الكتب، وجدت تراجم «الكاشف» إنما هي كالعنوان، تتشوق النفوس إلى الاطلاع على ما وراءه، ثم رأيت للذهبي كتاباً سماه «تذهيب التهذيب» أطال فيه العبارة ولم يعد ما في التهذيب غالباً، وإن زاد ففي بعض الأحايين وفيات بالظن والتخمين، أو مناقب لبعض المترجمين، مع إهمال كثير من التوثيق والتجريح، اللذين عليهما مدار التضعيف والتصحيح... فاستخرت الله تعالى في اختصار التهذيب على طريقة أرجو الله أن تكون مستقيمة، وهو أنني أقتصر على ما يفيد الجرح والتعديل خاصة، وأحذف منه ما أطال به الكتاب من الأحاديث...

- و«**مختصر الكامل في الضعفاء لابن عدي**» لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة ٨٤٥هـ، ذكر أنه يلخص ما قيل في الرواة على سبيل الإيجاز، وسأل الله تعالى أن يجعله عوناً على امتثال أمره، وسبباً لاتباع السنة.

ومن المؤلفين الذين ذكروا أنهم سلكوا طريقاً وسطاً في التأليف:

- الإمام **النووي** رحمه الله، في **شرحه على صحيح مسلم**، قال:

استخرت الله تعالى الكريم، الرؤوف الرحيم، في جمع كتاب في شرحه - يعني شرح صحيح مسلم - متوسط بين المختصرات والمبسوطات، لا من المختصرات المخلّات، ولا من المطولات المملّات. ولولا ضعف الهمم وقلة الراغبين، وخوف عدم انتشار الكتاب لقلة الطالبين للمطولات، لبسطته فبلغت به ما يزيد على مائة من المجلدات، من غير تكرار ولا زيادات عاطلات، بل ذلك لكثرة فوائده وعظم عوائده الخفيات والبارزات، وهو جدير بذلك، فإنه كلام أفصح المخلوقات، صلَّى الله عليه وسلَّم

صلوات دائمات، لكني أقتصر على التوسط، وأحرص على ترك الإطالات، وأوثر الاختصار في كثير من الحالات...

- ويقول الفقيه المالكي علي بن يحيى الجزيري (ت ٥٨٥هـ) إنه أقدم على تأليف كتابه «**المقصد المحمود في تلخيص العقود**» رغبة في الأجر وعوناً على التقى والبر، قال: وإني لمّا رأيت بعض الموثقين قد بسط مجموعها ومدَّ فروعها، وآخر أجحف في اختصارها، ولم يكشف عن أسرارها، جعلتُ كتابي هذا لاحقاً بالخير الوسط، محفوظاً من الإجحاف والشطط.

- و«**الطراز في شرح ضبط الخراز**» لمحمد بن عبدالله التنسي (ت ٨٩٩هـ) شرح فيه مورد الظمآن في رسم القرآن لمحمد بن محمد الخراز، المتوفى سنة ٧١٨هـ، وقال: فإني لما رأيت من تكلم على ضبط الأستاذ أبي عبدالله الشريشي الشهير بالخراز، وجدتهم بين مختصر اختصاراً مخلاً، ومطوّلاً تطويلاً مملاً، فاشتاقت نفسي إلى أن أضع عليه شرحاً متوسطاً، يكون أنشط لقارئه، وأقرب لفهم طالبه.

- ويقول ابن حزم الظاهري رحمه الله في الداعي إلى تأليف كتابه «**الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل**»: فإن كثيراً من الناس كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم ومقالاتهم كتباً كثيرة جداً، فبعضٌ أطال وأسهب، وأكثر وهجر واستعمل الأغاليط والشغب، فكان ذلك شاغلاً عن الفهم، قاطعاً دون العلم. وبعضٌ حذف وقصر، وقلَّل واختصر، وأضرب عن كثيرٍ من قويِّ معارضات أصحاب المقالات، فكان في ذلك غير منصف لنفسه في أن يرضى لها بالغبن في الإبانة، وظالماً لخصمه في أن لم يوفه حقَّ اعتراضه، وباخساً حقَّ من قرأ كتابه إذ لم يُغنِه عن غيره، وكلهم إلا تحلَّة القسم عقد كلامه تعقيداً يتعذَّر فهمه على كثير من أهل الفهم، وحلَّق على المعاني من بعد حتى صار يُنسي آخر كلامه أوَّله، وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم، فكان هذا منهم غير محمود في عاجله وآجله. فجمعنا كتابنا هذا مع استخارتنا الله عزَّ وجلَّ في جمعه وقصدنا به قصد إيراد البراهين...

جمع ما تفرّق

وهو نوعٌ مشهورٌ في التأليف، وهو يعدُّ من أسبابه أيضاً، فإن متابعة مؤلفٍ لموضوعٍ مشتَّت لا يجمعه كتاب، ثم جمعه أشتاته وتأليفه مادَّته وإفراده في كتابٍ، أمرٌ واردٌ قديماً وحديثاً.

وهو إذا كان لموضوعٍ معيَّن، فإنه قد يكون لموضوعات متفرِّقة، كما هو في كتب الثقافة العامة أو المجموعات الأدبية، التي كانت تسمى سفينة، وكنّاشة، وتذكرة، وكشكولاً، ودفتراً...

وقد يدخل ضمنها المستخرجات أو المستلات، كما في آخر مثال منه.

وهذه نماذج لما ذُكر.

- لم يتكلف المبرِّد في تقديم مقدمةٍ «رائعة» لكتابه الرائع «**الكامل في اللغة والأدب**»، بل أوجز ووضع في بضعة سطور محتواه وكفى، فقال: «هذا الكتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب، ما بين كلام منثور وشعر مرصوف، ومثل سائر وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة، والنية فيه أن نفسِّر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق...».
- وكان دافع أبي منصور الثعالبي (ت **٤٢٩**هـ) إلى تصنيف كتابه «**يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**» هو أنه «سبق مؤلفو الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء وذكر طبقاتهم ودرجاتهم، وتدوين كلماتهم،

والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم. . . . وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة، ولذَّة الجدَّة، وحلاوة قرب العهد، وازدياد الجودة على كثرة النقد، غير محصورة بكتاب يضمُّ نشرها، ويَنْظِم شَذْرها، ويشدُّ أزرها، ولا مجموعة في مصنَّفٍ يقيد شواردها، ويخلِّد فوائدها. . . فهذه النسخة الآن تجمع من بدائع أعيان الفضل. . . ما لم تأخذ الكتب العتيقة غُرَره. . .»

- ويجمع القاضي التنوخي أبو القاسم علي بن المحسّن (ت ٤٤٧هـ) في كتابه «**لطائف الأخبار وتذكرة أولي الأبصار**» مائة خبر من الأخبار المسندة، ذكر أنه «مجموع ظريف، حوى من كل معنى لطيف، جمعته تذكرة لأولي الألباب، ووسيلة إلى الفوز - إن شاء الله - عند المآب».

- وفي مقدمة قصيرة رائعة يذكر المقريزي في خططه «**المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**»: «أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي: الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمرتبة، وصحة الكتاب، ومن أي صناعة هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه».

قال: «أما الغرض في هذا التأليف فإنه جمع ما تفرَّق من أخبار مصر وأحوال سكانها كي يلتئم من مجموعها معرفة جُمل أخبار إقليم مصر، وهي التي إذا حصلت في ذهن إنسان اقتدر على أن يُخبر في كل وقت بما كان في أرض مصر من الآثار الباقية والبائدة، ويقصَّ أحوال من ابتدأها ومن حلَّها، وكيف كانت مصائر أمورهم وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر».

- وهناك كتاب لطيف عنوانه «**المحاورة الصلاحية في المحاجاة الاصطلاحية**» لعلي بن محمد بن فتوح الثعلبي، المعروف بابن الدريهم وبابن أبي الخير، والمتوفى سنة ٧٦٢هـ، هو مجموع المحاورات المتبادلة بينه وبين صلاح الدين الصفدي، قال: حصل محاورة بيني

وبين الفاضل صلاح الدين الصفدي، وكتب وجاوبته، وكتبتُ وجاوبني، فجمعتُ ذلك كتاباً وسميته...

● ويعرف القارىء المحبُّ لتراثه كتاب «**المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف**» لمؤلفه شهاب الدين الأبشيهي المصري، المتوفى سنة ٨٥٢هـ، الذي لم يكتفِ بصنيع غيره من جمع ما تفرَّق، بل جَمَعَ ما جُمِع! وانتقى واختار! فهو يقول في مقدمته:

رأيتُ جماعة من ذوي الهمم جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم، وبسطوا مجلدات في التواريخ والنوادر والأخبار والحكايات واللطائف ورقائق الأشعار، وألَّفوا في ذلك كتباً كثيرة، تفرَّد كلٌّ منها بفرائد وفوائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة، فاستخرتُ الله تعالى وجمعتُ من مجموعها هذا المجموع اللطيف، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف...

● وقال الإمام السيوطي في كتابه «**المحاضرات والمحاورات**»: هذا مجموعٌ حسنٌ انتخبتُ فيه ما رقَّ وراق من ثمار الأوراق، والتقطت فيه من درر الكتب الجواهر، ومن شجر الحدائق الأزاهر، مما يصلحُ لمحاضرة الجليس، ومشاهدة الأنيس.

● وفي «**ميزان المعاشرة وبيان المباشرة**» لمجهول، قال فيه: فإني تصفحت رسائل عديدة فلم أجد من تعرَّض إلى تأليف على حدة فيما يجب على الإنسان في طريق المعاشرة وبيان سبيل المباشرة... فأحببتُ أن أضع رسالة مختصرة...

● ولا يستغني محبو العلم من قلم وقرطاس، ولو كانوا في بحرٍ وجو، ورحلات وأسفار، فيدوِّنون ما طاب وراق، وما غرب واستطاب، مما رأوه بأعينهم أو سمعوه بآذانهم، من علماء وأدباء في أمصار العالم...

مثاله الأديب الرحالة المكي العباس بن علي الموسوي، المتوفى سنة ١١٨٠هـ، فقد عرضت له أمور آذاه فيها أقاربه وأصحابه، فرحل سائحاً في

العراق والهند واليمن، وسطَّر كل ما شاهده من العجائب في تلك البلدان، وأثبت اسم كل من اجتمع به من العلماء والرؤساء والأدباء، ودوَّن ما سمعه منهم من شعر لطيف، وخبر ظريف، ومسائل علمية، ونكت أدبية.. ثم جمعه وحرَّره.. وضمَّنه كتابه «**نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس**».

ويُقال مثل هذا في كتاب «**معجم السفر**» لأبي طاهر السلفي و«**البلدانيات**» للإمام السخاوي...

- وفي «**وسيلة الظفر في المسائل التي يُفتىٰ فيها بقول زفر**» لقاضي ومفتي الأحساء عبداللطيف بن عبدالرحمٰن الملا، المتوفى سنة ١٣٣٩هـ، قال: لما نصَّ علماء السادة الحنفية أنه لا يُفتىٰ بقول زفر بن الهذيل في الفقه إلا في خمس عشرة مسألة، مرجوحة في خمسها، وفي باقيها راجحة، وكانت مبسوطة متفرقة في الكتب المطوَّلة، أحببتُ أن أذكرها وأجمعها في رسالة مختصرة ليسهل أخذها...
- وقد يدخل في هذا الفصل «المستخرجات» بمعناها اللغوي وليس الحديثي، وقد يصلح أن يطلق عليها «المستلّات»؟

من ذلك ما فعله ابن قطلوبغا رحمه الله، عندما نظر في كتاب «التذكرة» لشيخه المقريزي، وهو كتاب في التاريخ، فاختار منه المؤلفين من مذهب أبي حنيفة، وأضاف إليه معلومات من عنده، وأخرج هذا كله في كتابه المعروف «**تاج التراجم**».

الأعمال الجامعة والموسوعية للاستغناء بها عن غيرها

لبعض المؤلفين نَفَسٌ طويل وصبر على البحث والتجميع، فيعمد أحدهم إلى تصنيف معاجم وموسوعات ضخمة قد تأخذ شطر عمره، ويقصد من ورائها إعطاء الموضوع حقه، تأصيلاً وتفريعاً، وتمثيلاً وتبويباً، وشرحاً وتوثيقاً... لأنه لا يجد نظير ما يرتئيه، أو لا يعجبه عمل مثيله، وأنه يجمع ويكتب ما لم يجمعه ويكتبه أحد في موضوعه، ويقصد من ورائه الاستغناء به عن غيره من الموضوعات المطروقة والمصادر والمراجع فيها..

ويختلف هذا من جهد مؤلف إلى آخر، ومن حيث تكوينه الثقافي وتخصصه العلمي، وقد يكون موضوعاً واحداً أو عدة موضوعات في علوم وفنون...

- ولعل أجمع ما كُتب في موضوع الإيمان وفروعه هو «**شُعب الإيمان**» للبيهقي (ت ٤٥٨هـ) رحمه الله، الذي صدر محققاً في (٧) مجلدات، مع مجلدَي فهارس، قال رحمه الله: ثم إني أحببتُ تصنيف كتاب جامع لأصل الإيمان وفروعه، وما جاء من الأخبار في بيانه وحسن القيام به، لما في ذلك من الترغيب والترهيب...
- وصنف الفقيه المالكي الجليل شهاب الدين القرافي (ت ٦٨٤هـ) كتابه «**الذخيرة**» ليكون جامعاً فلا يفوته شيء!

قال: وقد آثرت أن أجمع بين الكتب الخمسة التي عكف عليها

المالكيون شرقاً وغرباً، حتى لا يفوت أحداً مطلب، ولا يعوزه أرب. وهي: المدونة، والجواهر، والتلقين، والجلاب، والرسالة، جمعاً مرتباً، بحيث يستقرُّ كلُّ فرع في مركزه، ولا يوجد في غير حيِّزه...

وصدر الكتاب محققاً في (١٤) مجلداً.

- ونظر ابن ماكولا رحمه الله في «تكملة المؤتلف والمختلف» للخطيب البغدادي، فلم يعجبه عمله، وكذا «المؤتلف والمختلف» و«مشتبه النسبة» للأزدي، حيث قال: وجدته قد أخلَّ بأشياء كثيرة لم يذكرها، وكرَّر أشياء قد ذكراها، أو أحدهما، ونسبهما إلى الغلط في أشياء لم يغلطا فيها، وترك أغلاطاً لم ينبه عليها، ووهم في أشياء مما استدركه سطرها على الغلط، فآثرتُ أن أعمل في هذا الفن كتاباً جامعاً لما في كتبهم، وما شذَّ عنها، وأُسقط ما لا يقع الإشكالُ فيه مما ذكروه، وأذكر ما وهم فيه أحدهم على الصحة، وما اختلفوا فيه وكان لكل قول وجه ذكرته...

وأخرج عمله في سبعة مجلدات (مطبوعة) وسماه: «**الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**».

- وكذا كان دافع ابن القطاع (ت ٥١٥هـ) لتصنيف كتابه «**أبنية الأسماء والأفعال والمصادر**» حيث وقف على أعمال متخصصين في هذا الفن لم يأتوا على جميعها في أعمالهم، وقام هو بجمعها وتصنيفها واستيعاب ذلك كله.. قال: «فإنني رأيت العلماء قد صنفوا في أبنية الأسماء والأفعال وأكثروا فيها المقال، وما منهم من استوعبها، ولا أتى على جملتها، واضطربوا في أبنيتها وخلطوا في رتبتها... فلما رأيت ذلك أردت أن أستوعبها وآتي على جملتها...».
- وبعد أن تحدَّث ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) عن فضل الطب وأهميته، ذكر أنه أحب أن يكتب كتاباً جامعاً عن مشاهير الأطباء لفضلهم، فكان كما قال:

... ولم أجد لأحد من أربابها ولا من أنعم الاعتناء بها كتاباً جامعاً في معرفة طبقات الأطباء، وفي ذكر أحوالهم على الولاء، رأيت أن أذكر في

هذا الكتاب نكتاً وعيوناً في مراتب المتميزين من الأطباء القدماء والمحدثين، ومعرفة طبقاتهم على توالي أزمنتهم وأوقاتهم، وأن أودعه أيضاً نبذاً من أقوالهم وحكاياتهم، ونوادرهم ومحاوراتهم...

وجمع ذلك كله في كتابه «**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**».

- ونأتي إلى موسوعة تاريخية شهيرة، وهي الموسومة بـ«**الكامل في التاريخ**» للعلاّمة عز الدين بن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) الذي نقد عمل من سبقه في تدوين التواريخ العامة والإسلامية خاصة... «فمن بين مطوّل قد استقصى الطرق والروايات، ومختصر قد أخلَّ بكثير مما هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحادثات، والمشهور من الكائنات، وسوَّد كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور التي الإعراض عنها أولى، وتركُ تسطيرها أحرى... والشرقيُّ منهم قد أخلَّ بذكر أخبار الغرب، والغربيُّ قد أهمل أحوال الشرق، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخاً احتاج إلى مجلدات كثيرة، وكتب متعدِّدة، مع ما فيها من الإخلال والإملال».

قال: «فلما رأيتُ الأمر كذلك، شرعتُ في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان، متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا.

ولا أقول إني أتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ، فإن من هو بالموصل [محل إقامتهُ] لا بدَّ أن يشذَّ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكني أقول: إني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك».

- وذكر ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ) رحمه الله، أنه يؤلف كتابه «**صلة الناسك في صفة المناسك**» يجمع فيه من الفوائد والمهمات ما لا يعلمه اجتمع مثله في شيء من المناسك المصنَّفات، وأنه ينبِّه على كثير مما أحدث في أمرها من البدع والجهالات...

- وقال الزركشي (ت ٧٩٤هـ) رحمه الله في كتابه الجليل «**البرهان في علوم القرآن**»: لمّا كانت علوم القرآن ومعانيه لا تستقصى، وجبت العناية بالقدر الممكن، ومما فات المتقدِّمين وضعُ كتاب يشتمل على أنواع علومه كما وضع الناسُ ذلك بالنسبة إلى علم الحديث، فاستخرتُ الله تعالى ـ وله الحمد ـ في وضع كتاب في ذلك، جامع لما تكلم الناس في فنونه، وخاضوا في نكته وعيونه...

- ولعل أوسع كتاب في تراجم الحنفية هو «**الطبقات السنية في تراجم الحنفية**» للغزي، (المتوفى سنة ١٠١٠هـ). فقال: خطر في خلدي أن أجمع كتاباً مفرداً جامعاً لتراجم السادة الحنفية، مستوفياً لأخبارهم وفضائلهم ومناقبهم، وذكر مؤلفاتهم ومصنفاتهم، ومحاسن أشعارهم ونوادر أخبارهم وغير ذلك...

- وكان الدافع للفقيه صادق محمد بن علي الساقزي (ت ١٠٥٩هـ) لجمع مادة كتابه «**صرّة الفتاوى**» هو أن يُستغنى به عن غيره...

قال: لمّا اشتغلت من عنفوان شبابي بالفقه الشريف وجمعت مسائله المفتى بها الواقعة في المحاكم غالباً، أردت أن أرتبها على منوال الكتب تسهيلاً للحكام وتنفيعاً للأنام... ومن أراد أن لا يحتاج في الإفتاء إلى كتاب آخر من الفقه فليكتبها...

- وكتاب «**كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**» لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ) هو أكبر موسوعة تجمع كتب التراث الإسلامي، ومع ذلك قال: ولا شك أن تكحيل العيون بغبار أخبار آثارهم على وجه الاستقصا، لعمري إنه أجدى من تفاريق العصا، إذ العلوم والكتب كثيرة، والأعمار عزيزة قصيرة، والوقوف على تفاصيلها متعسِّر، بل متعذِّر، وإنما المطلوب ضبط معاقدها، والشعور [أو العثور] بمقاصدها... وقد ألهمني الله تعالى جمع أشتاتها، وفتح عليَّ أبواب أسبابها، فكتبت ما رأيت في خلال تتبع المؤلفات وتصفح كتب التواريخ والطبقات...

حبُّ الشيء والإعجاب به هواية وتسلية

يحدث لكثير من المؤلفين أن يتناول القلم ويكتب ما تحبه نفسه ويعجب به رأيه. وقد يكون هذا من باب القيام بالواجب، مما يملي عليه الضمير من الداخل، أو من باب الهواية والتسلية، كأية هواية أخرى يريد الإنسان ممارستها.

وقد تكون هذه المحبة لموضوع، أو لشخص، أو لمهنة.

وقد تكون معالجته لها كبيرة أو صغيرة، جامعة أو قاصرة.

- يقول العالم الجليل محمد بن إبراهيم الخركوشي (ت ٤٠٦هـ) رحمه الله في كتابه «**شرف المصطفى ﷺ**»: قد حداني إلى جمع شرف المصطفى محمد النبي ﷺ حبُّه والأُنس به؛ لأن من أحبَّ شيئاً أكثر ذكره، ولأنه ﷺ حكم أن المرء مع من أحبَّ، ولكي أكثر الصلاة عليه رسماً ونطقاً.

- ولتقي الدين المقريزي رسالة لطيفة بعنوان «**معرفة ما يجب لآل البيت النبوي من الحق على من عداهم**» صنفه للتنبيه على مكانتهم وحقهم العظيم على أمة الإسلام، فقال: لمّا رأيت أكثر الناس في حق آل البيت مقصّرين، وعمّا لهم من الحق معرضين، ولمقدارهم مضيعين، وبمكانتهم من الله تعالى جاهلين، أحببتُ أن أقيِّد في ذلك نبذة تدلُّ على عظيم مقدارهم، وترشد المتقي لله تعالى على جليل أقدارهم...

● ودافعُ أبي عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) لشرح القصيدة الرائية في التجويد والقرّاء لأبي مزاحم الخاقاني (ت ٣٢٥هـ) هو «ما رأيناه من استحسان خواص الناس وعوامهم لها، وشدة اهتبال قرّاء القرآن بها، وأخذهم أنفسهم بحفظها، وسؤال أكثرهم عن معانيها، وما وقفنا عليه من إتقان صناعتها وسلامتها، وحسن سبكها، وتهذيب ألفاظها، وظهور معانيها، وسلامتها من العيوب، ووفور حظها من الجودة. مع ما كان في أبي مزاحم ـ رحمه الله ـ من المناقب المحمودة، والأخلاق الشريفة...» كما قال في مقدمته من «**شرح قصيدة أبي مزاحم الخاقاني**».

● وإذا عرف القارىء أن للعالم الشجاع والأمير الوجيه أسامة بن منقذ الكناني (ت ٥٨٤هـ) كتاباً عنوانه «**العصا**» فإنه قد لا يعرف أنه ظل متعلقاً بموضوع كتابه هذا نحواً من ستين عاماً!

فقد مرَّ وهو صغير ببيت عالم فرأى عنده كتاباً في العصا، فأخذه ونظر فيه، لكنه نهره وأخذه منه، ثم اشتدَّت رغبته في اقتناء هذا الكتاب، وظلَّ ستين عاماً من عمره يبحث عنه في كل مكان، ويسأل عنه الناس، لكنه لم يوفق إلى الاهتداء إليه، فدفعه اليأس إلى تأليف كتاب في العصا، قال: «فكلما تعذَّر وجوده ازددت حرصاً على طلبه، إلى أن حداني اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب!».

ثم دعا الله وقال: وبالله عزَّ وجلَّ أعوذ وأعتصم من أن تكتب يدي ما يؤثم ويَصِم، ومن رحمته تعالى أطلب الصفح والغفران عن اشتغالي بالترَّهات عن تلاوة القرآن...

● وقد اشتهر الإمام ابن الجوزي بالوعظ: قولاً باللسان وسبكاً بالبنان... يقول في كتابه «**المدهش**»: قمت بحمد الله في علم الوعظ بأصحه وأملحه، وآثرتُ أن أنتقي في هذا الكتاب من مُلحه، والله الموفِّق في كلِّ عملٍ لأصلحه.

● وقال في كتابه «**اللطف في الوعظ**»: هذا كتاب رقَّت عبارته، ودقَّت

إشارته... جعلته طرازاً على ثوب الوعظ، وفضّاً لخاتم اللفظ، يعمل في القلب قبل السمع.

- ويعجب الإمام ابن الجوزي بثلاث شخصيات على مدى التاريخ الإسلامي أكثر من غيرهم، فيفرد لسيرة كل منهم كتاباً، قال في مقدمة كتابه الجليل «**مناقب الإمام أحمد بن حنبل**»: «...غير أني بحثت عن نائلي مرتبة الكمال في الأمرين ـ أعني العلم والعمل ـ من التابعين ومن بعدهم، فلم أجد من تمَّ له الأمران على الغاية التي لا يخدش وجه كمالها نوع نقص، سوى ثلاثة أشخاص: الحسن البصري، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل. وقد جمعت كتاباً يحوي مناقب الحسن، وكتاباً يجمع فضائل سفيان، ثم رأيت أحمد بن حنبل أولى بذلك منهما، لأنه جمع من العلوم ما لم يجمعا، وحمل من الصبر على إقامة الحق ما لم يحملا، وإني رأيت جماعة قد جمعوا مناقبه؛ فمنهم من قصَّر فيما نقل، ومنهم من لم يرتِّب ما حصَّل، فرأيت أن أصرف بعض زمني إلى تهذيب كتاب يشتمل على مناقبه وآدابه، ليعرف المقتدي قدر من اقتدى به، والله الموفِّق».

- وقد صنَّف الإمام النووي كتابه القدير «**تهذيب الأسماء واللغات**» حباً باللغة العربية، لغة القرآن الكريم، وإعجاباً بها، وأيضاً اشتغالاً بالأشياء المهمة.

فهو يثني على العربية ويبيِّن فضل تعلمها، ثم يقول: فلما كان أمرها ما ذكرته، وجلالتها بالمحل الذي وصفته، أردتُ أن أسلك بعض طرق أهلها، لعلني أنال بعض فضلها وأؤدي بعض ما ذكرته من فروض الكفاية، وأساعد في معرفة اللغة من له رغبة من أهل العناية...

- وكتب العالم الجليل سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن (ت ٨٠٤هـ) كتابه الرائع «**طبقات الأولياء**» حباً فيهم... قال: فهذه جملة من طبقات الأعلام الأعيان، وأوتاد الأقطاب في كل قطر وأوان، جمعتُهم لأهتدي بمآثرهم، وأقتفي بآثارهم، رجاء أن أُنظَم في

سلكهم، «**فالمرءُ مع من أحب**»[١] وأحيا بذكرهم، ويزول عني النَّصَب.

- ويقول الفقيه الحنبلي الكبير موفق الدين ابن قدامة المقدسي في «**كتاب التوابين**»: هذا كتابٌ ذكرت فيه بعض أخبار التوابين؛ تشويقاً إلى أخبارهم، وترغيباً في أحوالهم والاقتداء بهم.
- والذي دفع الإمام السيوطي إلى تصنيف كتابه «**بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**» هو حبُّ النحو والنحاة.. يقول: فإني مذ نشأتُ وأنا أتشوَّق إلى كتاب يجمع أخبار النحويين؛ لمزيد اختصاصي بهذا الفن؛ إذ هو أول فنوني، والنوعُ الذي عُنيت به قبل أن تجتمع شؤوني...
- وكان دافع طاش كبري زاده (ت ٩٦٨هـ) إلى تأليف كتابه «**الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية**» هو حب الكتابة في التراجم، فقال:

إني منذ ما عرفت اليمين من الشمال، والمستقيم من المحال، كنت مشغوفاً بتتبع مناقب العلماء وأخبارهم، ومتهالكاً على حفظ مآثرهم وآثارهم، حتى اجتمع من ذلك شيء كثير في الخاطر الفاتر، بحيث يمتلىء به بطون الكتب والدفاتر. ولقد دوَّن المؤرخون مناقب العلماء والأعيان مما ثبت بالنقل أو أثبته العيان ولم يلتفت أحد إلى جمع أخبار علماء هذه البلاد... إلخ.

- أما الأديب الوزير أبو جعفر أحمد بن زرقالة، فقد أعجبه من البلاغة التورية، ورأى أن أستاذه أبا جعفر أحمد بن خاتمة قد احتوى شعره على كثير من هذه الصفة، فطلب منه أن ينشده إياه، فأنشده، وجمعه في كتاب بعنوان: «**رائق التحلية في فائق التورية**». وبيَّن إعجابه بذلك في المقدمة، ومما قاله في ذلك: «كان لي بمحاسن الأدب شغف، وباقتناء جواهره كلف، أتشبَّث به تشبُّث الولد بالوالد، والموصول

(١) حديث صحيح رواه الشيخان وغيرهما.

بالصلة والعائد، وأقصد غرر عيونه، وأعتمد أبكاره دون عُونه[١]... وكانت التورية من محاسن الشعر تشهد لصاحبها بجلالة القدر، وتحلُّ من النفوس محلَّ النَّوْر من الرياض...»إلخ.

- وذكر المقريزي في موضع من مقدمته لكتاب «**المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**» المعروفة بالخطط المقريزية، أنه لجأ إلى تأليفه لأن اهتمامه بتاريخ مصر وآثارها يعود إلى حبه لها، فهي «مسقط رأسي، وملعب أترابي، ومجمع ناسي، فلا تهوى الأنفس غير ذكره، لا زلت مذ شدوتُ العلم... أرغب في معرفة أخبارها..».

- وللوزير الأديب جمال الدين علي بن ظافر الأزدي، وزير الأشرف[٢]، أحد ملوك بني أيوب، قصة طويلة مع كتابه «**بدائع البدائه**»، فقد بدأ به وهو فتى يافع، يجمع «أخبار الشعراء في البدائه والارتجال، ومحاسن أشعارهم في مضايق الإسراع والإعجال» و«سجع منها حكايات لم يرقمها في الطرس بنان». وأوقف على عمله هذا وزير صلاح الدين أبا علي عبدالرحيم بن الحسن البيساني، فحثه على الازدياد منها... فأكمله وأهداه إليه.

ولما صار وزيراً للملك الأشرف سمع بجزئه ذاك فطلب منه نسخة، وكان قد اجتمع عنده ما هو بحجمه.

ثم زاد على ما سبق أخباراً وحكايات أخرى، وجمعها جميعاً في كتابه المذكور.

- وكان الدافع ليوسف بن محمد البياسي على جمع «**الحماسة البياسية**» هو ولعه بالأدب ومحبة كلام العرب... وحمله هذا على جمع ما استحسنه من أشعار العرب وترتيبها على نسق حماسة أبي تمام.

- وفي شوق ومحبة يذكر محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) الدافع

---

(١) المرأة العون: المتزوجة.

(٢) وهو موسى بن محمد العادل بن أبي بكر محمد بن أيوب.

إلى تأليف كتابه «**إعلام الساجد بأحكام المساجد**»، وهو الشوق إلى مكة المكرمة والبيت الحرام، ثم يتبعه بالمساجد المفضلة الأخرى وغيرها، فيقول:

«هذا كتاب ينزل من القلوب منزلة الجَنان[١]، ومن العيون منزلة الإنسان[٢]، لم يُنْسَج له على منوال، ولم تسمح له قريحة بمثال، قدحه زناد الأشواق، من حُرَاق القلب التوّاق، وأملاه باعث الحب المكي، عند فوات العيش الهني:

فاستمِلاّ حديث من سكن الحيَّ ... ولا تكتباه إلا بدمعي
فاتني أن أرى الديار بطرفي ... فلعلي أرى الديار بسمعي

يشتمل على الأحكام والفضائل المختصة بالمسجد الحرام، وبمسجد النبيِّ عليه أفضل الصلاة والسلام، ومسجد الأقصى، وغيرها من مساجد الإسلام... جمعته رجاء ثواب الله، وأهديته لخير بلاد الله، حين لم يقتضِ الحال إهداء نَعَم ولا مال، ولله در من قال:

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ ... فليسعد النطقُ إن لم تسعدِ الحال

● أما شمس الدين محمد بن أحمد المقرىء الأنباري (ت ٧٥٨هـ) فقد ذكر في مقدمة كتابه الظريف «**المختار من نوادر الأخبار**» أنه كان مولعاً بمطالعة كتب المتأدبين، مشتغلاً بقراءة أخبار المتقدمين، فوجد أن أكثرها يشتمل على غث وسمين، فرغب أن يجمع منها كتاباً مختصراً يحتوي على «مستحسن الحكايات ومستجود الروايات»... «ليكون عوناً على المذاكرة، وتنبيهاً على حسن المفاكهة والمحاضرة...».

● وصنف العلاّمة مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) كتابه «**إيضاح المدارك**

---

(١) الجَنان: القلب.

(٢) إنسان العين: المثال الذي يُرى في السواد.

في الإفصاح عن العواتك» الذي يتضمن بيان أمهاته ﷺ من بني سُليم وغيرهم، حباً فيه عليه الصلاة والسلام وطلب الثواب من الله عزَّ وجلَّ: «... خدمتُ بذلك جنابه الشريف صلَّى الله عليه وسلَّم وشرَّف ومجَّد وعظَّم؛ رجاء أن أكون من جملة منسوبيه، وفي عداد الخدم في ضمن محسوبيه».

الانتصار للمبدأ والمذهب

ويعني هنا الإشارة بالمعتقد أو الموضوع المثار الذي يميل إليه المؤلف، والانتصار له، وحشد الشواهد والحجج والنصوص والأمثلة على صدق ما يدين به أو يرتئيه فيدافع عنه. وإذا رأى هجوماً عليه وتنقيصاً منه شمَّر عن ساعد الجدِّ فكتب وحاجج وجادل لينتصر...

- وقد ألَّف علي بن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) كتابه الضخم «**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**» الذي ترجم فيه لشعراء الأندلس وأورد أشعارهم، لأنه «وجدهم مقصِّرين في حقِّ أنفسهم، في شغفهم بكل ما هو مشرقي من شعر ونثر، إذ إن أهل ذلك الأفق الأندلسي أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة... إنه يريد أن يرفع من معنويات بني وطنه ويزيد ثقتهم بأنفسهم، ويشجب ميلهم إلى التقليد... ويبرز محاسن أهل بلده بإيراد مختارات من شعرهم ونثرهم لا تقل روعة عمّا للمشارقة»[1].

- وكان الدافع وراء تأليف أحمد بن محمد بن منير الإسكندراني (ت ٦٨٣هـ) للرد على «كشاف» الزمخشري في كتابه «**الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال**» هو الثأر لأهل السنّة من أهل البدعة.

---

(١) من مقدمة إحسان عباس للكتاب (طبعة دار الغرب الإسلامي).

وقد صرح بذلك في تعليقه على تفسير الزمخشري لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٣].

قال ابن المنيّر: «. . .فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنّة، وشقاقاً، وكيف ملأ الأرض من هذه النزغات نفاقاً، فالحمد لله الذي أَهَّل عبده الفقير إلى التورك عليه لأن آخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنّة، فأُصمي أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة».

وقال في موضع آخر عند تفسير الزمخشري لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧].

«. . .في هذا الفصل من كلامه وتمشدقه بالسفاهة على أهل السنّة، ورميهم بما لا يقولون به من الأخبار بالكذب، والتخليق والافتراء، ما يحمي الكبد المملوء بحب السنّة وأهلها، على الانتصاب للانتصاف منه. . .».

فهذا هو السبب الرئيس الذي دفع ابن المنيّر إلى تأليف هذا الكتاب، وقد اعتقد أنه بعمله هذا قد أدى للمسلمين وللإسلام خدمة عظيمة، كافية لأن تقوم له عذراً أمام الله، ثم أمام الناس عن تخلفه عن الخروج للغزو والجهاد في سبيل الله[١]. يقول في تعقبه للزمخشري في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً . . .﴾ [التوبة: ١٢٢].

«. . .ولا أجد في تأخري عن حضور الغزاة عذراً، إلا صرف الهمة لتحرير هذا الجانب»[٢].

● والذي دعا أكمل الدين البابرتي إلى تأليف كتابه «**النكت الظريفة في ترجيح مذهب أبي حنيفة**» هو الدفاع عن المذهب في وجه الانتقادات

---

(١) يقصد الخروج للجهاد ضد التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي والفرنج الذين كانوا يهددون بلاد الشام ومصر، وقد عاصر تلك الحقبة.

(٢) المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف / صالح غرم الله الغامدي.

التي وجهت إليه، وأن الإمام أبا حنيفة «لم يعلم أحاديث البخاري، وخالف أحاديث المرسلين، وكان ذلك موهماً لوهن مذهبه عند ضعفاء اليقين».

قال: «أشار إلي بعض الإخوان الذين هم بمنزلة الإنسان للعين، والعين للإنسان، أن أكتب رسالة تقوي اعتقاد ضعفة الحنفية في مذهب إمامهم...».

- وكان سبب إقدام أبي عبدالله محمد بن الطيب الصميلي (ت ١١٧٠هـ) لتأليف كتابه «**إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس**» هو الدفاع عن الجوهري والانتصار له في كتابه «الصحاح»، فقد لاحظ أن المجد الشيرازي الفيروزآبادي يكثر من الاعتراضات على «الصحاح» ويجعل من ذلك أهم أعراضه وأتم أغراضه، وألحف في ذلك وألح، وتابع في الرد وأتى بالتنديد..

ثم رأى بعض المقلدين يسايرونه ويعتقدونه، ويصوّبون اعتراضاته، قال: «مع أن كتاب الصحاح أجمع أئمة اللغة أنه بمنزلة صحيح البخاري بالنسبة إلى باقي الصحاح، دون غيره من كتب اللغة الصحاح. فلما رأيته أكثر من التنديد عليه وبالغ في عزو الأوهام إليه، انتصرت لأبي نصر، وعارضت اعتراضاته بالفتح والنصر، وجعلت أرد ما يورده مشروحاً...».

الأغراض والخفايا

وقد ينتصر المرء لمبدأ أو نحلة ولكن لا يستطيع إظهار نيَّته، فيلبس الموضوع إهاباً جديداً وهو يعني به ما تحته، ومن باب «إياك أعني واسمعي يا جارة». وهذا ما يكون شأن السياسيين غالباً، ومن يكنُّ رأياً مخالفاً للقوة المتمكنة، فيضرب المثل ويكني ويشبِّه خوفاً من أن يصرِّح فيناله الأذى... وهذا بارزٌ في مثل «**كليلة ودمنة**» الذي ترجمه عبدالله بن المقفع، وكان يكنُّ شراً للدولة الإسلامية، حتى قُتل.

وقد يكون لأمر التشويق أو تقريب الموضوع وإبرازه وبيان أهميته، كما في ضرب الأمثال، فكتبُ الأمثال تدخل في هذا الضرب، وكذا المقامات.. والأدب الساخر عموماً، كما في «اختراع الخراع» الآتي.

- ومن أمثلة التمثيل والتشبيه والترميز ما لجأ إليه ابن عربشاه عندما ألَّف كتابه «**فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء**» الذي يتضمن فصولاً متنوعة في الآداب الملوكية والسياسة السلطانية، معظمها على لسان الحيوانات، كما هو المقصود في كتاب «كليلة ودمنة» من حيث الشكل والمضمون..

قال: ...وجمعتُ ما بلغني عن نقلة الأخبار وحملة الآثار ورُواة الأسفار على لسان شيخ النطائف ومنبع المعارف... ووضعت هذا الكتاب نزهة لبني الآداب، وعمدة لأولي الألباب، من الملوك والنواب، والأمراء والحُجّاب...

- وكتاب «**اختراع الخراع**» للصفدي من كتب الأدب الساخر، الذي جمع فيه بين النقد والهزل، فسخر من مدَّعي العلم بالعربية لغة ونحواً وبديعاً وعروضاً، ومزج ذلك بالسخرية من المؤرخين والفلاسفة والأطباء ورجال السياسة وغيرهم، وحتى تركيبة العنوان فيه سخرية، فالخراع هو الجنون!

وقد اختار لكتابه راويةً اخترعه وكنّاه «أبا خرافة» ولقبه «الهذّاء»، يبوح بِبُعد روايته عن الحقائق، ويقربها من الأوهام...

الفائدة والانتفاع

وأن يكتب المرء أمراً يراه مفيداً نافعاً هو أول ما يأمله القارىء ممن عرفه بالنصح والتمكين في العلم والعمل، ولذلك يُقبِل القرّاءُ والباحثون على كتب كبار الكتاب والعلماء لأن عندهم الكثير، وكأنهم بحور من العلم! ولأن عندهم خبرات ومجالات علمية وعملية تمكنهم من الثبات والتنويع بحسب الموضوع الذي يتناولونه... بعكس المبتدىء أو قليل العلم، الذي لا يزال يبحث ويدور حول معنى واحد، فما يزال يعيد ويكرر حتى يملّه القارىء ويتركه، لأنه ليس لديه سوى معلومات قليلة...

لكن لا يقتصر النفع والفائدة على العلماء.. بل إن في جوانب الحياة وتنوعها الكثير مما يخصُّ الإنسان ويثير نفسه، من أدب وتاريخ وعلوم وفنون أخرى عديدة، فكلٌّ يقدر أن يُفيد إذا ملك ناصيتَي العلم والقلم.

ويقول عالم تونس وخطيبها الشيخ محمد بن محمد الورغمي، المتوفى سنة ٨٠٣هـ: إنما تدخل التآليف في ذلك ـ يعني فيما ينتفع به ـ إذا اشتملت على فوائد زائدة، وإلا فهو تخسير للكاغد.

ويعني بالفائدة الزائدة على ما في الكتب السابقة، أما إن لم يشتمل التأليف إلا على نقل ما في الكتب فهو الذي قال فيه تخسير للكاغد.

وهكذا يقول في حضور مجالس التدريس، أنه إن لم يكن فيها التقاط زيادة من الشيخ فلا فائدة في حضور مجلسه...

ونظم ذلك في أبيات فقال:

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتةٌ ... وتقريرُ إيضاحٍ لمشكل صورةِ
وعزو غريبِ النقل أو فتح مقفل ... أو إشكال أبدته نتيجة فكرةِ
فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد ... وإياك تركاً فهو أقبح خلَّةِ[1]

- وقد ألَّف أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله تعالى كتابه الرائع «**معرفة الصحابة**» لفائدة موضوعه، ولينتفع به الناس، هذا ما أوحى به كلامه، حيث قال: «بعض منتحلي الآثار ومتتبعي الروايات والأخبار أحبَّ الوقوف على معرفة صفوة الصحابة والمشهورين ممن حوَت أساميهم وأذكارهم ديوان الرواة والمحدِّثين وأسنانهم [أي أعمارهم] ووفاتهم تاريخ الحفّاظ المتقنين، عمن ثبت له عن الرسول ﷺ رواية أو صحَّت له صحبة وولاية، يكون من معرفتهم على بصيرة، وفي الاتباع لهم على وثيقة».

ثم ذكر عزمه على تحقيق هذا الطلب، وأن الاشتغال بمثل هذا العلم خدمة للدين، فالصحابة «هم السابقون إلى الإيمان، المنتخَبون للتحقق والإحسان»... وسيرتهم طيبة مباركة... قال: «فاستخرت الله تعالى واستعنت به، فأجبته إلى ما التمس معتمداً عليه، فألَّفت هذا الكتاب...».

- وقد وضع ابن حجر العسقلاني كتابه «**هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة**» «لينتفع بذلك من تسمو همَّته ممن يشتغل في شرح المشكاة إلى الاطلاع على معرفة تلك الأحاديث».

- وكان داعي التأليف عند الإمام السيوطي لـ«**تاريخ الخلفاء**» هو «أن الإحاطة بتراجم أعيان الأمة مطلوبة، ولذوي المعارف محبوبة».

ثم بيَّن أنه أفرد تراجم كل طائفة في كتاب؛ لأن ذلك أقرب إلى الفائدة لمن يريد تلك الطائفة خاصة وأسهل في التحصيل، فذكر كتبه في

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي ص ٤٦٥ (طبعة كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس الغرب).

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي الصحابة، والمفسرين، والحفّاظ، والنحاة، والأصوليين، والأولياء، والفرضيين، والبيانيين، والخطاطين، والشعراء... قال: «ولم يبقَ من الأعيان غير الخلفاء، مع تشوق النفوس إلى أخبارهم، فأفردت لهم هذا الكتاب».

- وجاء في مقدمة كتاب «**الازدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار**» للسيوطي أيضاً: «هذا جزء جمعت فيه الأشعار التي عُقِدَ فيها شيء من الأحاديث والآثار، سميته بالازدهار، وله فوائد: منها الاستدلال به على شهرة الحديث في الصدر الأول وصحتها، وقد وقع ذلك لجماعة من المحدِّثين. ومنها إيراده في مجالس الإملاء، ومنها الاستشهاد به في فن البديع: في أنواع العَقْد والاقتباس والانسجام».

ثم بدأ بمضمون الكتاب.

- واختصر عبدالقادر بن شيخ العيدروسي (ت ١٠٣٨هـ) الفائدة من كتابه «**النور السافر عن أخبار القرن العاشر**» بذكر بيتين أوردهما في المقدمة فقال:

إذا عرف الإنسانُ أخبار من مضى ... تخيّلتَهُ قد عاش حيناً من الدهرِ
فقد عاش كل الدهر من كان عالماً ... كريماً حليماً فاغتنم أطول العمرِ

العبرة

وتجيءُ العبرة عندما يكون هناك فهم وتأثُّر وتفاعل مع الموضوع، وتفاعل المسلمين يكون مع معتقدهم، ويحصل هذا مما ساقه القرآن الكريم من أخبار الماضين خاصة، وعن العقوبات الإلهية للأفراد والأمم والجماعات؛ لعصيانها وإيثارها الخرافة والباطل على الحقِّ الناصع المبين.

فالتاريخ وقصص الماضين، والترغيب والترهيب في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فيها أكبر عبرة للعاقل المتدبِّر.

وقد عمد كتّابنا السابقون إلى بيان بعض ما يريدون من خلال سياقهم ما ذكرت في مقدمات كتبهم. وهذه أمثلة على ذلك:

● كان سببُ تأليف علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ) كتابه التاريخي «**مروج الذهب ومعادن الجوهر**» ما حكاه في مقدمته، قال:

وكان ما دعاني إلى تأليف كتابي هذا في التاريخ وأخبار العالم وما مضى... احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء وقَفَاها الحكماء، وأن يبقي للعالم ذكراً محموداً وعلماً منظوماً عتيداً...

قلت: والذي قصده العلماء وتلاهم في ذلك الحكماء... هو التأريخ والعبرة.

● ويحدِّثنا الصفدي في موسوعته الضخمة «**الوافي بالوفيات**» في التراجم، أنه كتبه لما في تاريخهم من عبر وفوائد...

فكان مما قال: والتاريخ للزمان مرآة، وتراجم العالم للمشاركة في المشاهدة مرقاة، وأخبار الماضين لمن عاقر الهموم ملهاة...

وما أحسن قول الأرَّجاني:

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى تـوهَّمـتـه قد عـاش في أول الـدهـر
وتـحـسـبـه قـد عـاش آخـر دهـره إلى الحشر إن أبقى الجميل من الذكر
فقد عاش كلَّ الدهر من كان عالماً كريماً حليماً فاغتنم أطول العمر

وربما أفاد التاريخ حزماً وعزماً، وموعظة وعلماً، وهمَّة تُذهب همّاً، وبياناً يزيل وهناً ووهماً، وحيلاً تُثار للأعادي من مكامن المكائد... وصبراً يبعثه التأسّي بمن مضى، واحتساباً يوجب الرضا بما مرَّ وحلا من القضا...

- وذكر المؤرخ الكبير ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) في مقدمة كتابه «**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**» الفائدة والعبرة من كتابة سير الملوك والأمراء وكتابة التواريخ، وأنهاه بقوله: ليقتدي كل ملك يأتي بعدهم بجميل الخصال، ويتجنَّب ما صدر منهم من [اجتراح] المظالم وقبيح الفعال.

- وكان الباعث وراء اهتمام أبي شامة بالتاريخ هو أهمية هذا العلم ومنفعته فقلَّ إمام من الأئمة إلا ويحكى عنه من أخبار من سلف فوائد جمَّة «ويُروى عن الإمام الشافعي أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة وقال: ما أردتُ بذلك إلا الاستعانة على الفقه». «وفي كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ من أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الخالفة ما فيه عبر لذوي البصائر... قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ [سورة القمر، الآية ٤]... ولم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى، ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى... ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين كأنه قد عاصرهم أجمعين... هذا وإن الجاهل بعلم التاريخ راكب عمياء، خابط خبط عشواء، ينسب إلى مَنْ تقدَّم أخبار

من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبر... لا يفرق بين صحابي وتابعي...

وكان هذا وغيره دافعاً لتأليف كتاب شهير له في التاريخ لا يسدّ مسدَّه كتاب آخر، هو كتاب «**الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**»...

- وقال الشهرستاني في كتابه الشهير «**الملل والنِّحل**»: لمّا وفقني الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل، وأهل الأهواء والنِّحل، والوقوف على مصادرها ومواردها، واقتناص أوانسها وشواردها، أردتُ أن أجمع ذلك في مختصر يحوي جميع ما تديَّن به المتديِّنون، وانتحله المنتحلون؛ عبرةً لمن استبصر، واستبصاراً لمن اعتبر.

- وكتاب «**البحور الزاخرة في علوم الآخرة**» للعلاّمة محمد بن أحمد السفاريني (ت ١١٨٨هـ) كان تأليفه له رغبة وتوضيحاً وتقرباً، فيقول: «إني عزمت على جمع كتاب في أهوال الآخرة بعد أن تتبعت المؤلفات في هذا الباب، واطلعت على ما فيها من العجب العجاب».

ويذكر أنه جمع فيه «ما يعسر تحصيله على الطلاب في سوى هذا الكتاب» وأنه «إذا نظر فيه المؤمن زاده إيماناً... فهو مثير النفوس إلى مجاورة الملك القدّوس، وزاجر الهمم الدنيات عن اقتراف المعاصي والشبهات».

- وقد كتب المؤرخ عبدالرحمٰن بن حسن الجبرتي (ت ١٢٣٧هـ) كتابه «**مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس**» للاطلاع والاعتبار... قال في آخر مقدمته الرائعة: « ...ليكون ذلك تاريخاً مُطْلِعاً اللبيب على عجائب الأخبار وغرائب الآثار، تذكرة بعدنا لكل جيل، وإحاطة بهذا الخطب الجليل - يعني احتلال فرنسا لمصر - فيتأسى إذا لحقه مصاب، ويتذكر بحوادث الدهر ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾. فإن هذه الحوادث غريبة في بابها، متنوعة في عجابها...

بيان حكم الوقائع الجديدة (النوازل)

فقه النوازل معروف عند المسلمين، وهو معرفة الأحكام الشرعية للمستجدّات التي تحصل في حياة الإنسان، وهذا إن كان نوعاً من التأليف، فإن بيان حكمه هو سببه والدافع إليه. ويدخل فيه كثير من الفتاوى الشرعية.

فالوقائع الجديدة قد لا يتضح حكمها من خلال النصوص والأدلة الشرعية، مما يعني أن الأمر يحتاج إلى اجتهاد، وإلى استنباط وقياس، ثم يأتي جمع مسائلها مع بيان حكمها وإفرادها في كتب وتوزيعها، ليعرف المسلمون أحكام دينهم ودنياهم... وهكذا ينتشر العلم، ويعمُّ الحكم الإسلامي.

- «**نزهة النفوس في بيان حكم التعامل بالفلوس**» لابن الهائم (ت ٨١٥هـ) حول ارتفاع سعر العملة، وهل المعتبر فيها أثناء العقد أم قيمتها بعده؟

فرأى أقوالاً للمذاهب الأخرى في حوادث جرت بعد انتقاله إلى بيت المقدس، ورأى اضطراب الناس في معاملاتهم اضطراباً شديداً، وكثر الاستفتاءُ والسؤال في البيوع والإجارات والقروض وغيرها، قال: ولم أظفر لأحدٍ من أصحابنا ـ يعني الشافعية ـ فيها بمقالة، وسنح لي أن أضع فيها تصنيفاً أذكرُ فيه المستنَد، وأبيِّن أن ما أتينا به هو المعتمَد...

- و«**قرّة عين العابد بحكم فرش السجاجيد في المساجد**» لخير الدين بن

تاج الدين إلياس زاده (ت ١١٢٧هـ) ألَّفه لمّا عمَّت به البلوى من حَجْر المساجد والأماكن الفاضلة، وفرش سجاجيد وخِرَق لتحجز ولا يعلي عليها آخرون، في الحرمين وغيرهما من المساجد.

والمؤلف كان خطيباً في المسجد النبوي الشريف.

- وللعالم الجليل محمد حسنين مخلوف (ت ١٣٥٥هـ) كتاب بعنوان: «**المطالب القدسية في أحكام الروح وآثارها الكونية**» كان الباعث على تأليفه كما قال في المقدمة «أن رجلاً من أتباع أحد مشايخ الطرق أذاع في جهة الشرقية بمصر، أن شيخه كان يرى النبيَّ ﷺ يقظة ويقول: «أولادك أولادي وأحبابك أحبابي» فورد خطاب إلى مشيخة الجامع الأزهر من أحد أهالي الشرقية في شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٤هـ يتضمن السؤال التالي...

قال: فعهدت إلينا مشيخة الأزهر الإجابة عنه إذ ذاك. وجاء فيها كما سيأتي: «أن جسمه الشريف لا ينتقل من قبره المنيف، وإنما الذي يُرى خارجه ويتنقل إلى الجهات مثالهُ ﷺ وصورته لا جسمه وبدنه».

قال: وفي سنة ١٣٣٤هـ قد كثر لغط من لا دراية لهم في معنى الحياة البرزخية واضطربت أقوالهم... فرأيت أن أعيد النظر في هذا الجواب وأضيف إليه ما يثبِّت فؤاد الناظر في هذا الموضوع الدقيق ويزيده استبصاراً...

التصدّي للمنكرات والبدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هو من جملة ما كُلِّف به أهل العلم وأصحاب الغيرة على دين الله، ممن يؤرقه ويحزُّ في نفسه أن يرى حرمات الله تنتهك، وسنن الإسلام تُترك، فتشيع الفاحشة وينتشر المنكر، وتُؤْلَفُ البدعُ وتُنبذُ السنن، وتهجرُ الآداب والأخلاق الحميدة ويحلُّ محلها التقليد والتبعية...

فيقوم أهل الإسلام بالأمر بالمعروف وبيان الحق ونشر الخير، وينهون عن المنكر والفحشاء ويغلقون أبواب الشرّ والفساد، سواء بالقول أو الفعل، باللسان أو البيان... وكثير من الكتب تنطق بذلك...

- يقول الشيخ الجليل جمال الدين القاسمي رحمه الله في أول كتابه «**إصلاح المساجد من البدع والعوائد**» بعد الحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ:

لمّا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، والمهمُّ الذي ابتعث الله له النبيين، وجب على كل مستطيع له أن يقتحم لوجه الله سُبُلَه، خشية أن تعمَّ البدعة وتفشو الضلالة، ويتسع الخرق وتشيع الجهالة، فتموت السنّة ويندرس الهدي النبوي، ويُمحى من الوجود معالمُ الصراط السوي.

ولمّا أضحت البدع الفواشي كالسحب الغواشي، يتعذَّر على البصير حصرُها، وضبطُ أفرادها وسبرها، رأيتُ أن أدلَّ بجزئيٍّ منها على كلياتها،

وبنبذة منها على بقيّاتها، وذلك في البدع والعوائد، الفاشية في كثير من المساجد، لأني ابتُليت كآبائي بإمامة بعض الجوامع في دمشق الشام، وبالقيام بالتدريس العام، فكنتُ أرى من أهم الواجبات إعلامَ الناس بما ألمَّ بها من البدع والمنكرات، فإن القيِّم مسؤول عن إصلاح من في معيَّته، وفي الحديث: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1]، فاستعنتُ بالله تعالى في الشروع، وتوكلتُ عليه في إتمام هذا الموضوع، ونقبت لأجله عن شوارد الأسفار، وضممتُ إليه ما يروي البصائر والأبصار...

● وكذلك الإمام برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ) كان الدافع وراء تأليفه كتاب «**إنارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر**» هو أنه بعدما رجع من مصر - بعد طول غيبة - إلى دمشق، وجد في الجامع الأموي «قوماً يتحلقون ويهللون بصوت واحد من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، ذكراً يخرجونه عن وجهه إلى حيز المعصية، بالأصوات المزعجة والزعقات المدمجة، والقيام المصاحب للوثب الفاحش، والدق بالأرجل على هيئة مهولة منكرة، وكيفية جداً غير مقبولة... فلا يَدعون مصلّياً يعرف كيف يصلّي، ولا ذاكراً يعي ما يذكر، ولا مدرِّساً يفهم ما يدرِّس...».

وعندما كلَّم كبيرهم اغتاظ وقال له: كيف تمنعني من ذكر الله؟.. والجاهلون لأهل العلم أعداء... ثم شاع عن هذا العالم أنه يمنع من ذكر الله، «وبثوا ذلك في أطراف البلد على هيئات منكرة...».

وأورد قصة سلطان العلماء العز بن عبدالسلام لما أنكر صلاة الرغائب وأنه مُنع من الصلاة...

قال: «فجمعت ما حضرني في هذه النازلة ليعلم الحق في المسألة، وينفع مهما وقعت مجادلة، وسميته إنارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر».

---

(١) متفق عليه.

- وفي غيرة على الدين والعرض عمد كذلك العلّامة السفاريني (ت ١١٨٨هـ) إلى تأليف كتاب «**قرع السياط في قمع أهل اللواط**» عندما رأى انتشار هذا الخُلق الذميم والفعل الشنيع، سيَّما بين فئة معينة، «مع قبحه وجَرَمه وفظاعة اقترافه ووخمه»...

شبهاتٌ وردودٌ ودفعُ مطاعن والتصدّي للأفكار الهدّامة

الشبهاتُ التي يثيرها أعداءُ الحقِّ لا تنتهي ـ ما دام هناك حقٌّ وباطل ـ فإذا خبت في مكان برزت في آخر، يريدون بذلك إطفاء نور الله، وأنَّى لهم ذلك؟ فإن نور الصبح لا يقدرُ أحدٌ على حجبه، فإذا أثاروا الغبار ونفخوا في الدخان، فإنه لا يلبث أن ينقشع ليطلَّ النورُ من جديد، فإنه سبحانه متمُّ نوره ولو كره الكافرون والحاقدون.

وقد تثار فتن داخلية وتنتشر أفكار هدَّامه، فيتصدَّى لها العلماء، ليبرزوا الحقَّ ويردُّوا على أهل الباطل. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

- وكتاب «**الحيدة**» للإمام عبدالعزيز بن يحيى الكناني (ت ٢٤٠هـ) قصة مناظرة جرت بينه وبين المعتزلة والجهمية، وقد كتبه بأسلوب مؤثر، وكان دافعه لقيده وبيان أمره الخوف على عقيدة أهل الإسلام ودفع الشبهات عنها والرد على أهل الزيغ والضلال لينجلي الحق...

وقد أزعجه تفرد أهل الضلال بالحديث في المساجد، وأقلقه هروب المؤمنين من أوطانهم خوفاً على عقائدهم، وأسهر ليله انتشار الخطأ وعلو الباطل! فانطلق من موطنه مكة المكرمة مصطحباً ابنه راحلاً إلى عاصمة الخلافة (بغداد) ليناظر في بيت الخلافة ومع الخليفة العالم المأمون..

فينتهي إلى هذا الأمر وهو خائف.. حتى بلغه الله مقصوده.. وبلَّغ ما كان يريده وناظر.

- ولم يذكر الإمام البخاري سبب تأليفه كتاب «**خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل**» لكن نصَّ جمع من أهل العلم، منهم ابن قتيبة وابن تيمية وحاجي خليفة، أنه ألَّفه بسبب ما وقع من الفتنة بين بعض أهل الحديث في هذه المسألة، وقصد بذلك بيان الحق والرد على الغالطين. والمتأمل في الكتاب جيداً يتبين له ذلك، وقد ألَّفه في آخر عمره، بعد سنة **٢٥٢**هـ، لأن الفتنة وقعت في شعبان عام **٢٥٢**هـ، وآخر ما حدَّث البخاري بكتابه في سنة **٢٥٦**هـ كما نصَّ على ذلك في إسناد المخطوطة السعيدية، وهي سنة وفاته.

- وقال ابن قتيبة رحمه الله في كتابه «**تأويل مشكل القرآن**»: وقد اعترضَ كتابَ الله تعالى بالطعن ملحدون، ولَغَوا فيه وهجروا، واتبعوا ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ بأفهام كليلة وأبصار عليلة ونظرٍ مدخول، فحرَّفوا الكلام عن مواضعه وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض... وأوَّلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيفَ الغُمْرَ والحدَثَ الغِرّ... فأحببتُ أن أنضح عن كتاب الله وأرمي من ورائه بالحجج النيِّرة...

- كما ينشط رحمه الله لتأليف كتاب «**تأويل مختلف الحديث**» لبيان الحق في أسباب الاختلاف بين أهل العلم في فهم الأحاديث النبوية وشطط بعضهم والرد على المتشككين وما إلى ذلك، ومما قاله في المقدمة حول ذلك:

...فإنك كتبت إلي تُعلِمني ما وقفت عليه من ثَلْب أهل الكلام أهلَ الحديث وامتهانهم، وإسهابهم في الكتب بذمِّهم، ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض حتى وقع الاختلاف وكثرت النِّحل وتقطَّعت العِصَم وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضاً، وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث. فالخوارج.. والمرجىء..

إلى أن قال: وسألتَ أن أتكلف ذلك محتسباً للثواب، فتكلفته بمبلغ علمي ومقدار طاقتي، وأعدتُ ما ذكرتُ في كتبي من هذه الأحاديث، ليكون الكتاب تاماً جامعاً للفن الذي قصدوا الطعن به.

- وللإمام المحدِّث الطحاوي كتاب جليل عنوانه «**شرح معاني الآثار**» فقد سأله بعض أصحابه من أهل العلم أن يضع له كتاباً يذكر فيه الآثار المأثورة عن رسول الله ﷺ التي يتوهَّم أهل الإلحاد والضعفة من أهل الإسلام أن بعضها ينقض بعضاً، وبيَّن أن سبب هذا التوهُّم راجع إلى أمرين: قلة العلم بالناسخ والمنسوخ، وقلة العلم بما يجب العمل منها، لما يشهد له من الكتاب الناطق والسنّة المجتمع عليها...

- وألَّف أبو القاسم القشيري كتابه المشهور بـ«**الرسالة القشيرية**» في التصوف «غيرةً على هذه الطريقة أن يُذكَر أهلها بسوء، أو يجد مخالف لثلبهم مساغاً، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة» كما قاله في مقدمته.

- وكان دافع الإمام الغزالي لتأليف كتابه «**المستظهري**» هو استفحال أمر الباطنية وبثُّ دعاة الإسماعيلية من قبل الدولة الفاطمية في مصر للدعوة إلى الحاكم الفاطمي المستنصر بالله ضد الخليفة العباسي المستظهر بالله.

- وذكر ميرزا مخدوم (واسمه محمد بن عبدالباقي، ت ٩٩٥هـ) سبب تأليفه كتابه المهم «**النواقض لظهور الروافض**» بقوله: إن كثيراً من أهل العجم بل من سائر البلاد قد ضلوا ضلالاً بعيداً وانحرفوا عن قبلة الاستقامة إما جهولاً وإما عنيداً... فأحدثوا في الدين المحرمات الشيطانية لينالوا بها علواً في الأرض وفساداً... حتى انجرَّ الأمر إلى أن صار شتم أزواج النبيِّ عليه الصلاة والسلام وأغلب المهاجرين والأنصار شعارهم، بل كان على ذلك سراً وعلانية مدارهم.

وقد عايش المؤلف تلك المحنة، أي إجبار أهل السنّة في بلاد فارس على اعتناق نحلة التشيُّع أو يكون مصيرهم القتل. وألَّف هذا الكتاب بعد

محاولة قتله وهروبه إلى الدولة العثمانية وتوليه قضاء مكة المكرمة، فاعتبر مرجعاً تاريخياً لفترة غامضة وعصيبة.

- وهناك كتاب قيم أيضاً، هو من أبرز ما كتب في الرد على الرافضة عموماً، مع تحرٍّ وتعمق، كتبه عالم جهبذ، هو العلاّمة شاه عبدالعزيز بن أحمد الدهلوي (ت ١٢٣٩هـ) رحمه الله، وعنوانه «**التحفة الاثني عشرية**».

وكان سبب تأليفه هو ما رأى من انتشار هذا المذهب الباطل في الهند لجهل أبناء السنّة بدينهم، وتأثرهم عاطفياً بأقوالهم، حتى كاد أن يكون في كل بيت شيعي! قال رحمه الله: إن البلاد التي نحن بها ساكنون، والزمان الذي نحن فيه كائنون، قد تروَّج فيها مذهب الاثني عشرية رواجاً، وشاع شيوعاً كثيراً، حتى بلغ أن قد قلَّ بيت من تلك الأمصار والبلاد لم يتمذهب بهذا المذهب، ولم يرغب إلى هذه العقيدة... وأكثرهم جهلة في علم التاريخ، غافلون عن أصولهم، وما كان عليه أسلافهم الكبار...

قال: ومن أجل ذلك حرَّرتُ هذه الرسالة، وفرغت من تحريرها حسبة لله تعالى، كي لا يخرجوا حين المناظرة عن طريقهم، ولا ينكروا أصولهم.

- والعالم الحنبلي نجم الدين سليمان بن عبدالقوي الطوفي الصرصري (ت ٧١٦هـ) صنف كتابه الرائع في مقارنة الأديان «**الانتصارات الإسلامية**» رداً على كاتب نصراني، الذي اعتمد على كتب محرَّفة وطعن في الإسلام، فقال في مقدمته رحمه الله:

«رأيت كتاباً صنفه بعض النصارى يطعن به في دين الإسلام، ويقدح به في نبوّة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فرأيت مناقضته إلى الله ورسوله قرباناً، ورجوتُ بها مغفرة من الله ورضواناً؛ حذراً من أن يستخفَّ ذلك بعض ضعفاء المسلمين، فيورثه شكاً في الدين، ولقد رأيت بعض ذلك عياناً... فأوردت مناقضته حرفاً من كلامه فحرفاً، وأبنت عن مقاصد السؤال والجواب على وجه لا يخفى...».

- وكذا كتاب «**الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح**» لابن تيمية، ردٌّ على ما جاء في «الرسالة القبرصية» ومضمونها ستة دعاوى.

- وكان الداعي لتأليف الإمام تقي الدين السبكي «**السيف المسلول على من سبَّ الرسول ﷺ**» هو أن فُتيا رُفعت إليه في نصرانيٍّ سبَّ ولم يُسلم، فكتب عليها: يُقتل النصراني المذكور، كما قتل النبيُّ ﷺ كعب بن الأشرف، ويُطهِّرُ الجناب الرفيع من ولوغ هذا الكلب.

وكتب معه جماعة من الشافعية والمالكية.

ثم اعترض عليه البعض من أنه إذا لم ينتقض عهده لا يُقتل، وآخرون زعموا أن كعب بن الأشرف كان حربياً، أو أنه لم يُقتل لأجل السبّ؛ فألَّف هذا الكتاب وفقاً لهذه الاعتراضات، وأن ما احتجَّ به احتجَّ به الإمام الشافعي والأكابر من أصحاب مذهبه، وقال الإمام الغزالي إن المذهب أنه لا تُقبلُ توبته.

- وسبب تأليف ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) كتابه «**تطهير الجنان واللسان عن الخوض والتفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان**» كان بناء على طلب أحد سلاطين الهند في عصره يسمى همايون بن بابور (ت ٩٦٢هـ)، وسببه ـ كما قال الهيتمي ـ: «أنه نبغ في بلاده قوم ينتقصون معاوية رضي الله عنه وينالون منه، وينسبون إليه العظائم، مما هو بريء منه».

نقد وتمحيص وتصحيح أخطاء

المقصود هو الوقوف على عمل أو سماع خبر ثم قراءته ودراسته وتحليله، فإذا كان فيه ما يلفت النظر من أخطاء وهفوات نقد ومحُص وصُحِّح.

وقد يكون هذا العمل كتاباً، أو موضوعاً في كتاب، أو مجلس علمٍ جرى فيه حديث، أو نتيجة حوار وجدال.

وقد تكون الملاحظات على الفكرة كلها، أو على مسائل منها، أو على تحريفات وتصحيفات وقع فيها، أو على جوانب أسلوبية منها، أو ما شابه ذلك.

ويدخل فيه النقد الاجتماعي، وشيء من الأدب الساخر إذا قُصد به ذلك.

- ولأبي علي الفارسي كتاب شهير تناقله جيل عن جيل، ودرَّسه أساتذة عظماء في اللغة والنحو، وتتلمذ عليه الكثيرون، إنه «**الإيضاح العضدي**». لكن العالم المتبحر في النحو ابن الطراوة النحوي (ت **٥٢٨**هـ) رأى فيه أخطاء لا يستهان بها، فكان لا بد من تأليف كتاب لتنبيه الأساتذة والتلاميذ إليها، ولئلا يأخذهم الإعجاب بها إلى التغاضي عنها... فقال:

وكان الذي حدا إلى النظر في هذا الكتاب تهافتٌ في تفضيله على غيره من المختصرات المروية، وتظاهرُ المصحفين لتقدُّمه على التواليف

المسندة خروجاً من شرط النقل عن أهل الثقة والإسناد إلى الأئمة، حتى درست آثار المتقدمين، وامَّحت سبيل المؤلفين، فطمسوا أعين الناظرين، وضربوا على آذان السامعين، وخلصوا إلى قلوب الناشئين.

- ثم إن أبا علي الفارسي نفسه (ت ٣٧٧هـ) رحمه الله أخذ على شيخه أبي إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) مسائل في كتابه «معاني القرآن وإعرابه» وجمعها في كتاب له بعنوان «**الإغفال**» (وهو المسائل المُصلَحة من كتاب معاني القرآن).

قال: ذكرناها لما اقتضت عندنا من الإصلاح منها للإغفال الواقع فيها.

- وقال العلاّمة مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ): سألتَ ـ نفعنا الله وإياك ـ عن تمكين المدِّ في «آمن» و«آتى» و«آدم» وشبهه، وذكرت أن قوماً اعترضوا على الطلبة المبتدئين في مدِّ ذلك، فيُلبسون عليهم قراءتهم، ويورثونهم الشكَّ فيما قرأوا به، وذكرتَ أن أكثر ما يعترضون به أن يقولوا: من مدَّ «آمن» و«آتى» وشبهه فقد أخرجه من حيِّز الخبر إلى حيِّز الاستفهام.

وأنا أبيِّن لك فساد ذلك خاصة دون غيره من الاعتراضات، إذ قد وصل إليَّ في هذا المدِّ من الاعتراضات أشياء كثيرة، وقد تقصَّيتها وجعلتها منقوضة في جزأين... وإذ أكثر من يعترض ممن لا فهم له ولا دراية...

كذا قاله في مقدمة كتابه «**تمكين المد في (آتى) و(آدم) وشبهه**».

- وكان الباعث على تأليف كتاب «**الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**» كما قال مؤلفه الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠هـ) هو أن رواة الشعر المتأخرين «يزعمون أن شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي لا يتعلق بجيِّده جيِّدُ أمثاله، ورديُّهُ مطَّرح مرذول؛ فلهذا كان مختلفاً لا يتشابه، وأن شعر الوليد بن عبيد البحتري صحيح السبك، حسن الديباجة، ليس فيه سفساف ولا رديٌّ ولا مطروح؛ ولهذا صار مستوياً يشبه بعضه بعضاً».

ثم نفى ذلك، وبيَّن أن لكل منهجه، وأن الناس متفاوتون في أذواقهم لتلقي الشعر واستساغته... ثم فضل الموازنة وبيان المعنى في شعر كلٍّ منهما مما يتشابه في موضوعه، وترك الحكم للقارىء...

● وكان الدافع ليحيى بن إبراهيم السلماسي (ت ٥٥٠هـ) تأليف كتابه «**منازل الأئمة الأربعة**» هو تحريف بعضهم «لمقالات أرباب المذاهب وأصحاب المناصب»، وأن بعضهم يثير الفتن بين العوام، ويوقعون الخلاف بين الأنام، ويخيلون إليهم أن بين الأئمة وفقهاء الأمة خلافاً في المعتقد والأصول... حتى «تشوشت قلوب العوام، ووقع بينهم الخلاف...».

قال: فرأيت من الواجب أن أذكر من اتفاقهم في المعتقد فصولاً، وأورد من ذلك فصوصاً ونصوصاً... لينتهي الناس عن ذكرهم بما ليس فيهم...

● وذكر ابن الجوزي في كتابه «**نواسخ القرآن**» أن هناك مفسِّرين كبراء من السلف وقعوا في أخطاء عندما ذكروا آياتٍ منسوخة وليست كذلك، قال: ومعلوم أن نسخ الشيء رفع حكمه، وإطلاقُ القول برفع حكمِ آيةٍ لم يُرفع جرأةٌ عظيمة.

قال: فرأيتُ كشف هذه الغمَّة بين الأمة، ببيان إيضاح الصحيح وهتك ستر القبيح...

وذكر قبله كلمات تدلُّ على تمكنه في العلم ورسوخه.. قال: وأصل الفساد الداخل على عموم العلماء تقليد سابقيهم، وتسليم الأمر إلى معظميهم، من غير بحث عما صنفوه، ولا طلبِ دليلٍ عما ألَّفوه.

● ويقدم ابن العماد الأقفهسي (ت ٨٠٨هـ) على عمل صعب شائك بتأليفه كتاب «**كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار**» الذي وفقني الله لتحقيقه، فقد اختار الخوض في مسائل مشكلة عويصة جمعها في هذا الكتاب، وأورد الأقوال فيها مما احتار في معناها كثير من العلماء، كما أدلى هو بدلوه فيها، قال في المقدمة: هذا كتاب أذكرُ فيه أجوبة

عن مسائل مشكلة وخفيّات عن إدراك حواسِّ القلوب مقفلة، تتحيَّر فيها أفكار العلماء، وتقف عندها عقول الحكماء...

وذكر الداعي إلى الخوض فيها في آخر كتابه وقال: «وكان سبب جمعي هذا أني سمعتُ عن جماعة تخليطاً كثيراً في ذلك، لعدم هدايتهم ومعرفتهم بذلك».

ولكنه لم يوفَّق في بعض موادِّه، ولو أنه سكت عنها ولم يوردها لكان أفضل.

● ويذكر ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) في سبب تأليفه «**تحبير التيسير في القراءات العشر**» قوله:

وإني لما رأيت الجهل قد غلب على كثير من العوام وشاع عند من لا علم له من الغوغاء الطغام[١] أنه لا قراءات إلا الذي في هذين الكتابين[٢]، وأن السبعة الأحرف المشار إليها بقوله ﷺ: «**أنزل القرآن على سبعة أحرف**» هي قراءات هذه السبعة القراء، وأن ما عدا ما في هذين الكتابين من القراءات شاذ لا يُقرأ به أو لا يصح قرآناً، وكل قول من هذه الأقوال ونحوها باطل لا يُلتفت إليه، وخلفٌ لا يعوَّل عند علماء الإسلام عليه كما بيَّنه غير واحد من الأئمة، وأوضحه المقتدى بهم من سراة هذه الأمة...

● والذي دفع ابن النجار (ت ٨٧٠هـ) إلى تأليف كتاب «**غاية المراد في معرفة إخراج الضاد**»، هو ـ كما قال ـ: «لمّا رأيت كثيراً من الناس المختلفي الأجناس لا يحسنون إخراج الضاد.. فبعضهم يخرجها كالدال المفخَّمة، وهم الزيالع [جيل من السودان] ومن ضاهاهم... وبعضهم يخرجها ظاء معجمة، وهم أكثر الشاميين وبعض أهل الشرق. وهذا لا يجوز في كلام الله تعالى؛ لمخالفته المعنى الذي

(١) الطغام: الأوغاد.

(٢) يعني التيسير لأبي عمرو الداني والشاطبية.

أراده الله عزَّ وجلّ. فلو قال ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بالظاء القائمة كان معناه «الدائمين» وهذا خلاف مراد الله سبحانه وتعالى، وهو مبطل للصلاة... وبعضهم يخرجها ممزوجة بالدال أو بالطاء المهملة... وهم أكثر المصريين وبعض أهل الغرب. ويزعم أن هذا هو الصواب، وهو خطأ محض، وتبديل فاحش...

فلما كان الأمر كذلك استخرت الله سبحانه وتعالى وأحببت أن أكتب أوراقاً أذكر فيها ما قاله المحققون...

- وللحنابلة كتاب مشهور عنوانه «**الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل**» للعلاّمة المرداوي (ت ٨٨٥هـ) الذي صدر في (١٢) مجلداً، حيث ذكر أن كتاب «المقنع» لموفق الدين بن قدامة المقدسي، هو من أعظم الكتب نفعاً... «إلا أنه رحمه الله تعالى أطلق في بعض مسائله الخلاف من غير ترجيح، فاشتبه على الناظر فيه الضعيف من الصحيح، فأحببتُ إن يسَّر الله تعالى أن أبيِّن الصحيح من المذهب المشهور، والمعمول عليه والمنصور، وما اعتمده أكثر الأصحاب وذهبوا إليه، ولم يعرّجوا على غيره ولم يعوّلوا عليه».

- وابن ناصر الدين الدمشقي في كتابه «**النكت الأثرية على الأحاديث الجزرية**» ردَّ فيه على جزء فيه مسلسلات بالمصافحة وغيرها، للمقرىء المعروف محمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣هـ). قال: فوجدت في الجزء المشار إليه بعض ما ينبغي التنبيه عليه، مما ذكر فيه، والصواب سواه، فنبهت على ذلك.

- والذي حدا بالإمام الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) إلى تأليف كتابه «**البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**» هو «ما شاع على ألسن جماعة من الرعاع اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها، حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعذُّر وجود مجتهد بعد المائة السادسة...

إلى أن قال: حداني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل إلى تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا، ليعلم صاحب تلك المقالة أن الله ـ وله المنة ـ قد تفضّل على الخلف كما تفضّل على السلف، بل ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقلُّ نظيره من أهل العصور المتقدمة».

- ولرئيس أطباء مصر مدين القوصوني (ت بعد ١٠٤٤هـ) «**مقالة في البادزَهر الحيواني**» قال فيه: بلغني أن بعض الناس أنكر جواز استعمال حجر البادزهر الحيواني في حفظ الصحة وفي علاج شيء من الأمراض إلا للمسمومين، مستنداً في ذلك إلى ما نقله المولى الفاضل جمال الدين الأقسرائي... فوضعت هذه المقالة مستعيناً بالملك العلاّم.

- بقي أن نعرّج على كتاب في النقد الاجتماعي من التراث الإسلامي، وقد وقفت من بينها على كتاب لمؤلف قديم، هو الأديب العلاّمة محمد بن خلف بن المرزبان المحولي (ت ٣٠٩هـ) صاحب كتاب مشهور في الأخلاق الاجتماعية، وهو «**فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب**»، ويبدو أن الدافع إلى تأليفه هو الشكوى من بعض لئام الناس، الذين لا يأبهون بمن صنع معهم معروفاً، بل يخونون أقرب الناس إليهم أو يكيدون لهم فيؤذونهم وأنفسهم باردة، وهذا بعكس الكلاب التي عرفت بوفائها لأصحابها. ويبدو أن بعضهم شكا إليه مثل هؤلاء الناس، فوافق ذلك رغبة في نفسه، لعله أصيب كما أصيب به صاحبه. فقال في مقدمة الكتاب رحمه الله:

ذكرت أعزَّك الله زماننا هذا وفساد مودة أهله وخسة أخلاقهم ولؤم طباعهم، وأن أبعد الناس سفراً من كان سفره في طلب أخ صالح، ومن حاول صاحباً يأمن زلته ويدوم اغتباطه كان كصاحب الطريق الحيران، الذي لا يزداد لنفسه إتعاباً إلا ازداد من غايته بعداً، فالأمر كما وصفت...

ثم قال: وسألتني أعزَّك الله تعالى أن أجمع لك ما جاء في فضل الكلب على شرار الإخوان ومحمود خصاله في السر والإعلان، فقد جمعت ما فيه كفاية وبيان.

حسم الخلاف

من وجد في نفسه قدرةً على حلِّ خلاف وحسم نزاع وحصل ما عزم عليه، فقد أسدى يداً بيضاء إلى المجتمع، فإن حسم الخلافات العلمية لا يقلُّ شأناً عن الصلح بين الناس، وقد ندب إليه الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

- ونبدأ بالكتاب الذي كان سبباً أو دافعاً إلى تأليف هذا الكتاب الذي بين يديك، وهو كتاب «**حياة الحيوان الكبرى**» لمؤلفه كمال الدين محمد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨هـ) الذي جاء حسماً لنزاع علمي، حيث كاد الاختلاف على تعريف بعض الحيوانات وطبائعها يؤدي إلى عراك وتقاتل، أو بغضاء وسوء تفاهم. فكان أن شمَّر المؤلف عن ساعد الجد ليؤلف هذا الكتاب الكبير ذي الفوائد الغزيرة، علماً وفقهاً وأدباً، على الرغم من أنه لا يدخل تحت تخصصه، وإن كان ملماً به، فهو فقيه محدِّث، شرح سنن ابن ماجه، وبرع في التفسير والأصول!

يقول رحمه الله في مقدمة هذا الكتاب بأسلوبه الأدبي الجميل:

هذا كتاب لم يسألني أحد تصنيفه، ولا كلفت القريحة تأليفه، وإنما دعاني إلى ذلك أنه وقع في بعض الدروس، التي لا مخبأ فيها لعطر بعد عروس، ذكرُ مالك الحزين والذيخ المنحوس، فحصل في ذلك ما يشبه حرب البسوس، ومزجَ الصحيح بالسقيم، ولم يفرق بين نسر وظليم،

وتحككت العقرب بالأفعى، واستنت الفصال حتى القرعى، وصيَّروا الأروى مع النعام ترعى، وقضوا باجتماع الحوت والضب قطعا، واتُّخذ كلُّ أخلاق الضبع طبعا، ولبس جلد النمر أهل الإمامة، وتقلدها الجميع طوق الحمامة:

والقوم إخوان وشتى في الشيم وقيل في شأنهم اشتدي زيم

وظن الكبير أنه أصدق من القطا، وأن الصغير كالفاختة غلطا، وصار الشيخ الأفيق كذات النحيين، والمعيد ذو التحقيق كالراجع بخفي حنين، والمفيد كالأشقر تحيرا، والطالب كالحبارى تحسُّرا، والمستمع يقول: «كل الصيد في جوف الفرا»، والنقيب كصافر يكرر: «أطرق كرا». فقلت عند ذلك: في بيته يؤتى الحكم، وبإعطاء القوس باريها تتبيَّن الحكم، وفي الرهان سابق الخيل يُرى، وعند الصباح يحمد القوم السُّرى. واستخرتُ الله تعالى ـ وهو الكريم المنّان ـ في وضع كتاب في هذا الشأن، وسميته «حياة الحيوان»...

وقد ذكر المؤلف في تعريف «مالك الحزين» أن ضبطه كان من جملة الأسباب الباعثة على تأليفه، خوفاً من تصحيف لفظه وتحريفه.

- وسبب تأليف كتاب «**القصّاص والمذكّرين**» لابن الجوزي هو إجابة سائل وحسمُ خلاف، فقد «سأل سائل فقال: نرى كلام السلف يختلف في مدح القصّاص وذمّهم، فبعضهم يحرِّض على الحضور عندهم، وبعضهم ينهى عن ذلك، ونحن نسأل أن تذكر لنا فصلاً يكون فصلاً لهذا الأمر. فأجبت، والله الموفِّق».

- وقد تردَّد عند بعض شرّاح الحديث ممن اهتم بصحيح الإمام مسلم أن فيه أحاديث مقطوعة، وحدَّدها المازري في كتابه «المعلم بفوائد مسلم» بأربعة عشر حديثاً، وأقرَّه القاضي عياض في «إكمال المعلم». فكان لا بدَّ من تبيين هذا الإشكال، وخاصة أن الحديث المقطوع لا يرتقي بنفسه إلى درجة الصحة فكيف يقال إن كل ما رواه مسلم صحيح؟

لقد جاء الإمام الحافظ رشيد الدين يحيى بن علي العطار فجمع في حافظته هذه الأحاديث وتجول في كتب الحديث، وسمَّى من وصلها من الثقات المعتمد على قولهم في هذا الشأن، ومن أخرجها في كتبه من أئمة الحديث، وألَّف كتابه الرائع «**غرر الفوائد المجموعة في بيان ما وقع في صحيح مسلم من الأسانيد المقطوعة**»(١).

قال في المقدمة رحمه الله: «هذه أحاديث مخرَّجة من صحيح الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري الحافظ رضي الله عنه وقعت شاذَّة عن رسمه فيه، ذكرها الإمام أبو عبدالله محمد بن علي المازري التميمي رضي الله عنه ورحمه في كتابه المسمى بـ«المعلم» ونص على أنها وقعت في كتاب مسلم مقطوعة الأسانيد، وعدَّها أربعة عشر حديثاً، ونبَّه على أكثرها في مواضعها من كتابه، إلا أنه لم يبيِّن صفة انقطاعها، ولا ذكر من وصلها كلَّها من أئمة الرواة، فربما توَّهم الناظر في كتابه ممن ليس له عناية بالحديث ولا معرفة بجمع طرقه، أنها من الأحاديث التي لا تتصل بوجه، ولا يصح الاحتجاج بها؛ لانقطاعها. وقد رأيت غير واحد يلهج بذكرها ويظنها على هذه الصفة، وليس الأمر كذلك، بل هي متصلة كلها - والحمد لله - من الوجوه الثابتة التي نوردها فيما بعد إن شاء الله...

- وفي كتابه «**أحكام الاختلاف في رؤية هلال ذي الحجة**» يذكر ابن رجب الحنبلي رحمه الله الدافع إلى تأليفه، وهو ما حصل للناس من اضطراب، حيث غُمَّ هلال ذي الحجة، فأشكل، فأكمل الناس هلال ذي القعدة... وتوقف بعض الناس عن صيام التاسع الذي هو يوم عرفة، وقالوا: هو يوم النحر، على ما أخبر به بعض الشهود الذين لم يسمع الحاكم شهادتهم... فكتب في ذلك... حسماً للخلاف.
- وقال ابن دحية الكلبي في سبب وضعه كتابه «**أداء ما وجب من بيان وضع الوضّاعين في رجب**»: لما كثر اختلاف الناس في هذا الشهر

(١) صدر بأكثر من تحقيق، أفضلها بتحقيق سعد بن عبدالله آل حميد. الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٢١هـ، ٤٢٤ص.

المسمى برجب، وقلَّ العارف به المتكلم فيه بما وجب... وكثر الخبط في ذلك بين العوام، ولم يكن من الخواص من يعرف ما فيه من الكلام، تعيَّن في شرع الله عليَّ... أن أخصَّ هذا الشهر بما فيه، وأتكلم على جملة معانيه... رفعاً للكذب عن رسول الله ﷺ، عملاً بمقتضى ما اقتضاه الكلام.

- ووضع الإمام اليافعي كتابه «**نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية**» إجابة عن عشرة أسئلة. ولم يكتب إجابتها أولاً، بحجة أن كتب أهل السنّة ناطقة بثبوت كرامات الأولياء، ثم أجاب عليها بعد أن «ذكروا لي أنه وقع كلامٌ كثير وخصام شديد... حتى أدى إلى شرٌ كثير...».

- وكان الداعي لمرتضى الزبيدي إلى تأليف كتابه «**هدية الإخوان في شجرة الدخان**» كما قال: «زعم كثير من أهل العصر بل ومن قبلهم من جلة الفقهاء العارفين بالسنّة والقرآن، والحكماء الماهرين في الفن والجائلين في الأقطار والبلدان أن هذه الشجرة مجهولة الوصف والشأن، وأنه لم يعرفها العرب من قديم الزمان، ولا ذكرها أحد منهم في كتاب، ولا أقام على معرفتها واضح البيان، ولذا وقعوا في حيص بيص في تجليتها، ولم يكشفوا عن العيان. ولعمري هذا الزعم فاسد، كيف وقد ذكرها غير واحد من الأئمة الأعيان كابن دريد في الجمهرة، والأزهري في التهذيب، وابن سيده في المحكم، والجوهري في الصحاح، والمجد في القاموس، ونقولهم هي الجواهر الحسان. وسبقهم إمام العارفين أبو حنيفة الدينوري في كتاب النبات كما سيأتي نصه مع البيان...».

- وقد رضي الإمام الشوكاني أن يكون حكماً بين الفقهاء في اختلافاتهم حول مسائل في كتاب شهير، فصنف كتابه «**السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار**»، وهو شرح لمختصر «الأزهار في فقه الأئمة الأخيار» للمهدي لدين الله (ت ٨٤٠هـ)، فيقول في مقدمته:

«فإن مختصر الأزهار لما كان مدرسَ طلبة هذه الديار في هذه الأعصار ومعتمدهم الذي عليه في عباداتهم ومعاملاتهم المدار، وكان قد وقع في كثير من مسائله الاختلاف بين المختلفين من علماء الدين والمحققين من المجتهدين؛ أحببت أن أكون حكماً بينه وبينهم، ثم بينهم أنفسِهم عند اختلافهم في ذات بينهم... وستقف يا طالب الحق بمعونة الله سبحانه في هذا المصنف على مباحث تشدُّ إليها الرحال، وتحقيقات تنشرح لها صدور فحولِ الرجال، لما اشتمل عليه من إعطاء المسائل حقها من التحقيق، والسلوك فيما لها وعليها في أوضح طريق مع كل فريق».

موضوع أو تصنيف جديد

قد يقدح في الفكر مشروعُ موضوعٍ جديد، أو هكذا يبدو، فيعمد إلى البحث والتنقيب والسؤال وجمع الشواهد والأدلة للخروج بهذه الفكرة الجديدة وقد تحوَّلت إلى كتابٍ بعناصره المطلوبة.

وقد يدخل في هذا الباب جمعُ ما تفرَّق إذا كان لموضوعٍ خاصٍّ لم يُفرد من قبل في كتاب وهو يستحقُّ ذلك، ويظهر كأنه جديدٌ حقّاً في موضوعه أو تصنيفه، كما يأتي في الأمثلة.

- كان من دواعي تأليف كتاب «**البديع**» لابن المعتزِّ ما بيَّنه في مقدِّمته: «ليُعلم أن بشّاراً ومُسْلِماً وأبا نواس ومن تقيَّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن».

- كما يتوجَّه أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) إلى تأليف إبداعي، يذكر أنه لم يُسبق إليه، فقال في مقدمة كتابه «**تحسين القبيح وتقبيح الحسن**»: «فإن هذا الكتاب ألَّفته وصنَّفته برسمه، وشنَّفتُه وشرَّفتُه باسمه، وأودعته لمعاً من غُرر البلغاء، ونُكتِ الشعراء، في تحسين القبيح وتقبيح الحسن، إذ هما غايتا البراعة، والقدرة على جزل الكلام في سرّ البلاغة وسحر الصناعة، وما أراني سُبقتُ إلى مثله في طرائف المؤلفات وبدائع المصنفات».

ثم يذكر أنه بعدما أكمله وصار «بديعاً في حسنه» أهداه إلى مكتبة أحد الفضلاء الشرفاء، ممن له يد عليه، فقال: «وحين ارتفع غريباً في فنه، بديعاً

في حسنه، خدمتُ به خزانة كتب الشيخ السيد أبي الحسن علي بن عيسى الكرجي أدام الله توفيقه وعلوَّه... والله أسأل أن يقرَّ به عينه، ويشرح صدره، ويعرفه من بركاته أضعاف ما فيه من الحروف بالألوف...».

- ويقول الفقيه المالكي القرطبي الكبير أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) في سبب تأليفه كتابه «**المنهاج في ترتيب الحجاج**»: لما رأيتُ بعض أهل عصرنا عن سبل المناظرة ناكبين، وعن سَنَنِ المجادلة عادلين، خائضين فيما لم يبلغهم علمه ولم يحصل لهم فهمه، مرتبكين ارتباك الطالب لأمرٍ لا يدري تحقيقه، والقاصد إلى نهجٍ لا يهتدي طريقه، أزمعتُ على أن أجمع كتاباً في الجدل يشتمل على جُمل أبوابه وفروع أقسامه.

- وعُرف عن **ابن خلدون** أنه مؤسس علم الاجتماع، وقد أشار في **مقدمته** إلى شيء من هذا وأنه يكتب تاريخه وتقديمه له بأسلوب علمي جديد، فكان مما قال فيها: ...ولمّا طالعتُ كتب القوم، وسبرتُ غور الأمس واليوم، نبَّهتُ عين القريحة من سِنَة الغفلة والنوم،... فأنشأتُ في التاريخ كتاباً رفعتُ به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً، وفصلته في الأخبار والاعتبار باباً باباً، وأبديتُ فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً... وسلكتُ في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً، واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً وطريقة مبتدعة وأسلوباً، وشرحتُ فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الأكوان وأسبابها، ويعرِّفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها.

- وكان هدف أبي اليمن العليمي عبدالرحمٰن بن محمد (ت ٩٦٩هـ) من تأليف كتابه القيم «**الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**» الذي يغطي تاريخهما منذ بدء الخليقة حتى سنة ٩٠٠هـ، هو ما قاله بأسلوب العالم المتواضع: «والله يعلم أني لم أقصد بذلك الفخر، ولا أن يقال إني من جملة المصنفين؛ لعلمي بحقيقة حالي في التقصير، وأن

بضاعتي في العلم مزجاة، وإنما دعاني لذلك أن غالب بلاد الإسلام قد اعتنى بها الحفّاظ وكتبوا ما يتعلق بتاريخها مما يفيد أخبارها الواقعة في الزمن السابق، وبيت المقدس لم أطلع له على شيء من ذلك يختص به، وإنما ذكروا في التواريخ أشياء في أماكن متفرقة، ورأيت الأنفس متشوقة إلى شيء من هذا النمط الذي قصدت فعله، وإن بعض العلماء كتب شيئاً يتعلق بالفضائل فقط... وبعضهم... وأحببت أن أجمع بين ذكر البناء والفضائل والفتوحات وتراجم الأعيان...».

- وقد لجأ المؤرخ نجم الدين الغزّي (ت ١٠٦١هـ) إلى تأليف كتابه المشهور «**الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**» لأنه لم يجد من أفرد كتاباً في التراجم لهذه الطبقة.

قال: وإني طالما كنت أتشوَّق إلى تأليف كتاب يجمع تراجم المتأخرين من أهل المائة العاشرة من العلماء الأنجاب، فلم أجد من تعرَّض لهذا المعنى أو دخل في هذا الباب...

ثم ذكر أشياء استفاد منها.

وينفع أن يكون هذا أيضاً في «تكملة نقص واستدراك ما فات».

- وذكر ابن حجر الهيتمي رحمه الله في كتابه «**الإعلام بقواطع الإسلام**» أن موضوع التكفير حقيقٌ بالتأليف، لأنه لم يرَ أحداً عرج على ذلك، وأنه اضطربت فيه أفكار الأئمة وعباراتهم، وزلَّت فيه أقدام كثيرين، ولخطر أمره وحكمه قصد تسهيل جمعه وبيان ما وقع للناس فيه...

- ومرَّ في «**لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية**» قول مؤلفه: هذا كتابٌ نفيس لم يسبقني أحدٌ إلى وضع مثاله، ولا أظنُّ أحداً نسج على منواله».

يعني أنه جديد موضوعاً وأسلوباً.

- ومرَّ أيضاً أن كتاب «**الارتفاق في مسائل من الاستحقاق**» جديد في موضوعه.

- وصرَّح ابن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦هـ) أنه يرجو ألا يكون سُبق إلى مثل كتابه «**عقلاء المجانين**». وحقَّ ما قال!

- وسببُ تأليف ياسين الخطيب (ت نحو ١٢٣٢هـ) كتابه «**الروضة الفيحاء في تواريخ النساء**» لأمرين:

أولهما: تكملة مشروعه في التراجم، فقد صنَّف كتباً فيها تراجم لتخصصات شتى، وأردفه بهذا الكتاب لما يخصُّ النساء.

والثاني: أنه لم يجد كتاباً صُنِّف في تراجم النساء، قال: «حيث إني لم أطلع على كتاب من كتب التواريخ فيه مفرداً ذكر النساء، ولا سمعتُ أحداً تعرَّض لذكرهن دون غيرهن».

وقد أوردت محققة الكتاب «رجاء السامرائي» قائمة كتب فيهن من التراث الإسلامي، بين مطبوع ومخطوط ومفقود، بلغت (٩٦) كتاباً.

- وكان الدافع وراء تأليف كتاب «**يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار**» لمؤلفه محمد صديق حسن خان القنوجي (ت ١٣٠٧هـ) هو سد فراغ في التأليف لم يبحث فيه مستقلاً في كتاب من قبل، بينما أفردت كتب في الجنة ونعيمها، فكان لا بد من تأليف كتاب مستقل في هذا، لأنه «باب من أبواب الترهيب، وحاجة المسلم إليه أشد من حاجته إلى الأول، لأن الإيمان بين الخوف والرجاء، والمرء بين الشدة والرخاء، والخوف يفعل في الخائف ما لا يفعل الرجاء في الراجي... وأن دين الإسلام ورد بالمهلكات كما جاء بالمنجيات، وأن النبيَّ ﷺ حذَّر وبشَّر وأنذر...».

وقال في آخر مقدمته: «ولو كنت وقفت على مثل هذا الجمع لأحد

منهم لم أكلف نفسي لجمع هذا الكتاب الموعود، ولم أدخلها في هذه العقبة الكؤود...»[١].

(١) صدر كتابه هذا في طبعة محققة بعنوان «عذاب النار» بتحقيق السيد الجميلي.
ولم يقف المؤلف رحمه الله على عمل قبله صنف في هذا الموضوع قديماً، وهو كتاب «وصف النار» لابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ) الذي وفقني الله لتحقيقه.

أسلوبٌ جديد

وقد يعمد كاتب إلى تأليف كتاب في هيئة جديدة وأسلوب جديد ولو أن موضوعه طُرق سابقاً، فهذا يعدُّ جديداً في أسلوبه لا موضوعه، يعني شكلاً لا مضموناً، وقد يعني أنه لجأ إلى هذا التأليف لذلك!

- قال السيوطي رحمه الله في تقديمه لكتابه «**المزهر في علوم اللغة وأنواعها**» «هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه، وذلك في علوم اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع، وأتيت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع، وقد كان كثير ممن تقدَّم يلمُّ بأشياء من ذلك، ويعتني في بيانها بتمهيد المسالك، غير أن هذا المجموع لم يسبقني إليه سابق، ولا طرق سبيله قبلي طارق».

- وقد زعم يوسف الشربيني المتوفى سنة ١٠٩٨هـ، أنه أول من صنَّف كتاباً بدون نقط، وهو كتابه «**طرح المدر لحلِّ اللآلاءِ والدرر**» الذي وفقني الله لتحقيقه، ثم بيَّنتُ في المقدِّمة أن رائد هذه البدعة من التأليف هو أبو الفيض فيض الله بن المبارك الأكبرآبادي، المتوفى سنة ١٠٠٤هـ، حيث قام بتفسير القرآن الكريم ملتزماً فيه بالحروف المهملة، وسماه «**سواطع الإلهام**»، وقد طبع في لكهنوء سنة ١٣٠٠هـ.

- وينحى ابن عربشاه الحنفي منحى آخر في التوجه إلى الخلفاء وأهل

الأدب والظرف، من إبراز مكنون الآيات والحكم والعبر المبثوثة في الكون والآثار الغابرة على «ألسنة الوحوش وسكان الجبال والعروش، وما هو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيار وحيتان البحار وسائر الهوام، فيسندون إليها الكلام لتميل لسماعه الأسماع، وترغب في مطالعته الطباع...».

ويبرّر عمله هذا بأن الآيات والحكم انتشرت ولم تعد العقول تفكر فيها بالأساليب العادية، فكان لا بدَّ من لفت النظر إليها بأساليب أخرى، منها ذكر ذلك على ألسنة الحيوانات. فإذا «قرع سمعهم قول القائل صار الفيل قاضياً، والنمر طائعاً لا عاصياً، والقرد رئيس الممالك، والثعلب وزيراً لذلك؛ ارتاحت لذلك نفوسهم، وزال عبوسهم، وانشرحت خواطرهم، وسُرَّت سرائرهم، وأصغت إليه أسماعهم، ومالت إليه طباعهم...».

هذا ما قدَّمه لنفسه في كتابه «**فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء**».

إثارة النفس وتحريك الفكر وترويح البال (الإثارة والتشويق)

قد يكون سبب التأليف والهدف منه هو الإثارة الفكرية بأسلوب أدبي أو تعليمي مشوّق، تجيش به النفس ويتنبَّه به الشعور ويتَّقد فيه الذهن، وقد يكونُ الهدف منه ثقافياً، أو تعليمياً كما ذكرت، أو ترويحاً للبال وطرداً للملل.

ويدخلُ في هذا كتبُ الألغاز والمزاح وما إليها.

● «**الجامع الكبير**» للإمام محمد بن الحسن الشيباني من أهم مصنفاته وأعمقها وأدقّها، ينطوي على فروع فقهية دقيقة، وعلل خفيَّة يحار العقل في وجوه تفريعه... ولصعوبته ودقة مسائله شرحه العلماء ونظموه وكشفوا أسراره وبيَّنوا معانيه.

وذكروا أن الباعث له على هذا التأليف ربما لأنه لاحظ من مسائل الفقه ما يُبنىٰ على قواعد تخفى على أكثر الناس من دقائق اللغة العربية وخفايا العلوم الأخرى بحيث يتبادر إلى أذهانهم خلاف حكمها؛ لغفلتهم عما عليه الحكم من مبنى دقيق... ويرى البعض أنه ألَّفه ليكون محكماً تُعرف به نباهة الفقهاء وتيقظهم في وجوه التفريع ويختبر قدراتهم العلمية...

● ويتحدث ابن ظفر الصقلي (ت ٥٦٧هـ) في كتابه «**أنباء نجباء الأبناء**» عمن اشتهر بعلوِّ الهمَّة، ونور البصيرة، ممن رشح نفسه للملك أو

الرئاسة، أو نطق ببليغ الحكمة، أو صاغ بديع الشعر، أو جاد بماله ونفسه، أو قاد الكتائب والجيوش...

وقال في هدفه منه: ...قصدتُ به تلقيح عقل غلام، وتنقيح فطنة كهام[١]، إلا أني أجنيت قارئيه من هذا النوع ألذَّه وأطيبه... لأن النفوس طلعة إلى الفائق العجيب، مولعة بالرائق الغريب...

- و«**طراز المحافل في ألغاز المسائل**» كتاب في الفقه الشافعي، صاحبه عالم جليل ومؤلف مشهور، هو عبدالرحيم بن الحسن الأسنوي (ت ٧٧٢هـ)، جعله مسائل ألغاز يطرحها، وهدفه من هذا هو جلب الانتباه وربط القارىء بالكتاب ومتابعته لمسائل الفقه الدقيقة[٢]، يقول: «التغطية من السائل بالمرامز والتعمية في المسائل بالروامز مما تثير النفوس وتحرك البواعث وتبعث الجلوس على استحضار أحكام الحوادث، فترفع لعلوم الخاملين عَلَماً وتثبت لأقدار المشهورين قدماً، وقد سلك النبيُّ ﷺ هذا المعنى وتعاطاه مع أصحابه... ومنه ما رواه البخاري ومسلم... عن النبيِّ ﷺ قال: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟**»...

ثم ذكر أن هناك من العلماء من كتب في مثل هذا، وذكر ميزة عمله.

- وبرز سبب التأليف في عنوان الكتاب من «**غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح**» للعالم الجليل مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي، المتوفى سنة ١٠٣٣هـ، فقال مقدِّماً إياه للقارىء: أحببتُ أن أضع بعض لطائف في ذكر المزاح وبيان المحمود منه والمذموم، وبعض حكايات تزيل الهموم عن قلب المغموم، تحسن بها المعاشرة، وتلذُّ بها المسامرة...

---

(١) الكهام: السيف الذي لا يقطع، وهو هنا استعارة للغلام البليد.

(٢) مثال قوله: مالٌ يضمن كله ولا يضمن جزؤه، ومالٌ يضمن جزؤه ولا يضمن كله. وشخص أتلف ملك نفسه ويجب عليه غرم بدله لغيره، وشخص أتلف مال غيره بسبب هو مخطىء فيه ولا يلزمه غرامة. ونحو ذلك.

- ويُفهم من مقدمة الحافظ ابن الجوزي رحمه الله أن دافعه لتأليف كتابه «**أخبار الظرّاف والمتماجنين**» هو إثارة النفس وتحريك الفكر... يقول: بلغني عن جماعة من الفطناء والظرفاء حكايات تدلُّ على قوة فهومهم، فسماعها يشحذ الذهن، وينبّه الفهم، فأحببتُ أن أذكر منها طرفاً...

وفي التقديم أيضاً أنه «يسردُ فيه أنواع الفكاهة النظيفة، ومن مستحسن المزح، ومستمسح الدعابة، وسرعة البديهة... بما تنشط به النفس من ملل الجدّ والعمل، ويُريح القلب والروح من سآمة الدرس والفكر...

- ومرَّ في كتابه «**أخبار الأذكياء**» أن من أسباب تأليفه له «تلقيح ألباب السامعين إذا كان فيهم نوع استعدادٍ لنيل تلك المرتبة، وقد ثبت أن رؤية العاقل ومخالطته تفيد ذا اللبِّ، فسماعُ أخباره تقومُ مقامَ إخباره...».

- وللمحدِّث الجليل والمؤرِّخ الكبير مغلطاي بن قليج البكجري، المتوفى سنة ٧٦٢هـ، كتاب في أخبار العشاق والمحبين، بل أكثرهم عشقاً وعذاباً حتى ماتوا من الحب! وكأنه شعر أن هناك من سينقده لانشغاله بمثل هذه الأمور وهو المحدِّث النقّادة ومن حفّاظ الحديث، لكنه يردُّ أن مثل هذا ليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب...

ثم قال: وبالجملة فلا بدَّ لمن أكثرَ من الجدِّ أن يستريح إلى الفكاهة ليذهب عن ذهنه الصدأ والآفة، والإنسانُ إلى الملل أميل، والتنقُّل أشهى لقلبه وأمثل.

قاله في أول كتابه «**الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين**».

التجارب والرحلات والاكتشافات والمذكرات

وقد يكون الدافع إلى تأليف كتاب هو التجارب الشخصية والخبرات الطويلة التي يعايشها الإنسان، والتي قد تتوفر لبعضهم ظروف فيها لا تتوفر لغيرهم، ويأتي اليوم الذي يشعر فيه المرء بلزوم تفريغ هذه الذكريات، وأنه يخشى إن مات أن تموت معه تلك المعلومات والخبرات، وما تزال النفس تلحُّ عليه من الداخل حتى يكتب أو يملي؛ ليُطَّلع عليها ويُستفاد منها.

وقد وقفت على مؤلفات حديثة عدَّة، كان الباعثُ على تأليفها تجارب أصحابها في الحياة، بحيث كانت تحرِّك ذاكرتهم في كلِّ حين، وتقضُّ مضجعهم في كلِّ أوان، فلا يرتاحون إلا إذا أباحوا بها، فكتبوها أو أملوها على آخرين، ليعرف الناس ما كان، وليكون إضافة إلى خبرة الإنسان.

- ويدخل في هذا الجانب الذكريات والمذكرات، ومما يعرف بالسيرة الذاتية.
- وأيضاً الرحلات، كرحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جبير، وغيرهما.
- وكذا قصص الاكتشافات والاختراعات.
- وكتب البلدانيات الحديثية، وهي التي يدوِّن فيها المؤلف المحدِّث ما سمعه من شيخ في كل بلد، من حديث أو خبر أو شعر، ويدوِّن ذلك كله، كـ«**معجم السفر**» لأبي طاهر السِّلفي، و«**البلدانيات**» للسخاوي.

ومن كتب المذكرات في التاريخ الإسلامي كتاب «**الاعتبار**» للأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) الذي لم يصل إلينا كاملاً، وقد كتبها وهو في التسعين من عمره، وفيها يبيِّن خبرته الطويلة في الحروب، ولذلك كان يستشيره السلطان صلاح الدين الأيوبي كثيراً، قال رحمه الله:

«ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحمتُ المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف، وطعنت بالرماح، وجرحت بالسهام والجروخ، وأنا من الأجل في حصن حصين، إلى أن بلغت تمام التسعين».

وفي هذا الكتاب ترجم فيه لنفسه، ووصف الحروب والمعارك التي خاضها، والملوك والقواد الذين عايشهم، ولذلك يعدُّ من أخطر الوثائق التاريخية...

وقد استدعاه صلاح الدين الأيوبي إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ من حصن كيفا الذي كان قد اتخذه مسكناً، فقرَّبه إليه لخبرته وتجاربه مع الصليبيين، فكان يستشيره ويستأنس برأيه، وإذا غاب عنه في غزواته كاتبه وأعلمه بواقعاته، واستخراج رأيه في كشف مهماته وحلِّ مشكلاته.

- والقاضي الجليل والعالم الحكيم محمد بن فراموز الشهير بملا خسرو تولى قضاء القسطنطينية وتوفي بها، وكان مفتياً بالتخت السلطاني (ت ٨٨٥هـ). كتابه «**درر الحكام في شرح غرر الأحكام**» [والأصل له أيضاً] كتبه من علمه الغزير بالفقه الحنفي ومن تجاربه الشخصية في القضاء، وذكر في مقدمته أنه كان متبرماً من وظيفته تلك، لكن تبيَّن له من بعد أن ما قضاه في تلك الفترة بين أعمال القضاء كان خيراً ودافعاً إلى تأليف هذا الكتاب (٢ج، ٨٣٠ص)، قال:

...وابتُليت في أثنائه ببلاء القضاء بلا رغبة فيه ولا رضاء، وأعدُّ ما يمضي من عمري عبثاً، ومخالطة العوام ومخاطبة غير أهل الإسلام خبثاً، حتى كان يخطر في خلدي دائماً أنه غير لائق بحالي، وكنت أسأل الله تعالى أن يبدِّل بالخير مآلي، ومع ذلك لم يكن ذلك الابتلاء خالياً عن حكمة،

ولا عارياً عن فائدة ومصلحة، حيث كانت سبباً لتتبع أحكام جزئيات الوقائع والنوازل، والعثور على تقييد إطلاقات المتون في تقرير المسائل، فصار باعثاً على كَتْبِ متنٍ حاوٍ للفوائد، خاوٍ عن الزوائد...

- وفي الرحلات تستوقفنا محطات كثيرة، ولأغراض شتى، لعل أكثرها الرحلات في طلب العلم، ثم رحلات الحج، ثم رحلات الاكتشافات والهوايات وما إليها.

ويعلم القارىء أن هناك كثيراً من أهل العلم دوَّنوا ذكرياتهم عندما قصدوا الحج، وخاصة لقاءاتهم بأهل العلم ووصف الحرمين الشريفين والأحوال الاجتماعية في تلك الأوقات، واستنتج منها الباحثون المعاصرون فوائد جمَّة.

ونقف عند رحالة أندلسي اسمه محمد بن عبدالرحيم بن أبي الربيع الغرناطي، المتوفى سنة ٥٦٥هـ، وقد بدأ رحلته إلى مصر سنة ٥٠٨هـ بقصد التعلم والاستفادة، ثم عاد إلى الأندلس ليجدِّد الترحال إلى جزيرة سردينيا وصقلية، ثم ليحطَّ رحله بالقاهرة. ومن هناك انطلق إلى بغداد ليبقى فيها أربع سنوات، ثم انطلق إلى بلاد فارس، وفي العام التالي عبر بحر قزوين ليصل إلى مصب نهر الفولجا من الأراضي الروسية، وقام بعدها بثلاث رحلات إلى خوارزم. وفي سنة ٥٣٠هـ دخل بلغاريا، وبعد (١٥) سنة أخرى رحل إلى هنغاريا وتزوج ليقيم بصفة دائمة، لكنه في سنة ٥٥٤هـ عاد إلى بغداد ليؤلف للوزير ابن هبيرة كتابه «المغرب عن عجائب المغرب».

وفي سنة ٥٥٧هـ استقرَّ به المقام في الموصل، ونزل عند أحد العلماء، ووجد منه تشجيعاً لتسجيل مشاهداته وما صادفه من العجائب والغرائب أثناء رحلاته، فدوَّن كل ذلك في كتاب أسماه «**تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**».

ومن العراق انتقل إلى الشام، ثم أقام بحلب بضع سنوات ثم سافر إلى خراسان، ومنها إلى دمشق ليموت بها!

- ولم يكتب ابن بطوطة مقدمة لرحلته الشهيرة «**تحفة النظار في غرائب**

الأمصار وعجائب الأسفار»، لكن كتبها له ابن جزي الكلبي، الذي ذكر أن الحاكم آنذاك هو الذي أمره «بأن يُملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخاطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلائها، وعجيبة أطرف بانتحائها».

وقد دامت رحلته (٢٥) عاماً!

- ومن قصص الاكتشافات العلمية المدونة هذا الكتاب، حيث سيتعرَّف القارىء من مقدمة إسماعيل بن البزاز الجزري (ت ٦٠٢هـ) لكتابه «**الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل الهندسية الميكانيكية**» يعلمُ كم تردَّد المؤلف حتى جعل فكرته وعمله المرهق هذا في كتاب، فقد جمع فصولاً متفرِّقة مما وضعه من سبق في هذا العلم، وفرَّع منها أصولاً مما حقَّقوه، واستنبط فنوناً لطيفة، بعد مشقة وعمل تجريبي وعبقرية فذَّة في هذا المجال.

وعند اطلاع الملك ناصر الدين محمود بن قرا أرسلان على نماذج من اختراعاته، ذكر له أنه صنع أشكالاً عديمة المثال، ونصح ألاّ يضيِّع تعبه، وأن عليه أن يصنِّف كتاباً ينتظم وصفَ ما قام به من أعمال في هذا المجال... فكان كذلك.

الخاتمة

كان ما سبق رحلة في مقدِّمات بعض المؤلفين من التاريخ الإسلامي، حيث استنتجنا منها «أسباب» تأليفهم الكتب عندما يصرِّحون بها، أو توحي بها كلماتهم... وهي غير «أنواع التأليف».

وليس في كل كتابٍ ما يفيد دواعي تأليفه، وفي بعضها لا توجد مقدِّمات.

وفي مقابل ذلك هناك بعض المؤلفين يذكرون أكثر من سبب لتأليفهم.

- ومنهم من يؤلف ليهدي عمله إلى حاكم أو وجيه أو صديق، لغاية في نفسه.
- أو أنه يلجأ إلى التأليف إجابة لطلب سائل، وهو كثير.
- أو يقوم بجمع مسائل سئل عنها...
- أو يكون عند تحدٍّ.
- أو لبحث وتحرٍّ.
- أو لرؤيا يراها.
- أو لشكر يؤديه.

- أو يتفق سببه مع غايته فلا يكتب إلا لطلب الأجر والثواب من الله تعالى.

- وقد يكتب لحاجة وأهمية وضرورة.

- أو للإحاطة والاستبصار ليكون المرء على بيِّنة من أمره، ويسير على هدى، ولئلا يقع في مهاوي وضلالات تعصف بفكره ومعتقده.

- وقد يكتب قاصداً النصح والإرشاد، وطلباً للإصلاح وبث الوعي.

- أو أنه يؤلف تأثراً بأمر ما أو شعوراً بمسؤوليته تجاه هذا الأمر.

- وقد يكتب لئلا ينسى أو تضيع منه المعلومات.

- أو أنه يقصد به إحياء علم اندرس أو كاد، أو التذكير بسنّة وفضيلة قد توارت!

- أو أنه يحدث خوف وهلع وحزن فيطمئن ويواسي.

- أو حباً في العلم والتأليف.

- وانشغالاً بأفضل العلوم والأعمال بغرض الحصول على أكبر أجر وأعظم ثواب.

- وقد تكون الكتب للدرس والتعليم.

- وقد يكون على بعضها ملاحظات أو نقص معلومات فيكمل ما فات ويُستدرك ما فات.

- وقد تحتاج كتب إلى تفسير وشرح وتوضيح، أمثال النصوص والمتون والمنظومات...

- وقد تتقاعس الهمم عن متابعة المطولات فيُنتخب منها ويختصر، وقد لا يجد بعضهم إتقاناً ووسطية في تأليف كتاب معين فيؤلف هو ويتوسط فيه.

- أو يرى معلومات متفرِّقة فيجمعها وينظمها في كتاب.

- ومن ذلك الأعمال الجامعة والموسوعية للاستغناء بها عن غيرها.

- وقد تكون الكتابة في الشيء حباً له وإعجاباً به، أو لهواية وتسلية...

- أو يكون الهدف انتصاراً للمبدأ أو الشخص...

- وقد لا يفصح عن نيَّته، فيضرب المثل ويكني ويشبِّه...

- وقد يرى ما هو مفيد ونافع فيتجه إليه ويقدِّمه لذلك.

- أو للعبرة، كما في قصص الأنبياء والصالحين، وكتب التاريخ عموماً.

- أو لبيان حكم الوقائع الجديدة التي لا سابق للناس بها، وتحتاج إلى جمع وتوثيق وإعلام.

- وقد يكون الدافع التصدِّي للمنكرات والفواحش والبدع السيئة، فيكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- أو لدفع مطاعن عن الدين وأهله، والتصدِّي للأفكار الهدامة والغزو الفكري.

- وقد يقرأ المرء فينبِّه إلى أخطاء وينقد ويمحِّص.

- أو يرى خلافاً وجدالاً فيجد عنده من العلم ما يكفي للرد والاحتواء، فيحسم الخلاف...

- أو يقدح في فكره موضوع يرى أنه لم يُكتب فيه من قبل.

- أو أن موضوعاً قد طُرق ولكن يحتاج إلى صياغة جديدة.

- وقد يكون الهدف هو الإثارة الفكرية والتشويق، أو لترويح البال وطرد الملل.

- وللتجارب والرحلات والاكتشافات وكتابة السير الذاتية أهمية يكون من ورائها أهداف ومنافع حاضرة. والله أعلم.

فهرس الكتب

عنوان الكتاب — الصفحة

(أ)

- **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، لأبي الريحان البيروني ٢٥
- **ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار**، لابن القطعة ٢٨
- **أبنية الأسماء والأفعال والمصادر**، لابن القطاع ٩٠
- **اتفاق المباني وافتراق المعاني**، للدقيقي ٢٠
- **إثبات الاستواء والفوقية**، لإمام الحرمين الجويني ٥٤
- **الأحاديث المختارة مما لم يخرّجه البخاري ومسلم في صحيحيهما**، لضياء الدين المقدسي ٧٦
- **أحاديث منتقاة من أحاديث أبي القاسم الطبراني**، لابن مردويه ٨١
- **أحكام الاختلاف في رؤية هلال ذي الحجة**، لابن رجب ١٣٠
- **أحكام النظر إلى المحرمات**، للخباز ٢٦
- **إحياء علوم الدين**، للغزالي ٦٣
- **أخبار الأذكياء**، لابن الجوزي ..... ١٧، ١٤٢
- **أخبار سيبويه المصري**، لابن زولاق المصري ٧٦
- **أخبار الظراف والمتماجنين**، لابن الجوزي ١٤٢
- **اختراع الخراع**، للصفدي ١٠٤
- **أداء ما وجب في بيان وضع الوضّاعين في رجب**، لابن دحية الكلبي ١٣٠
- **أدب الندماء ولطائف الظرفاء**، لكشاجم ١٤

عنوان الكتاب	الصفحة
ـ الأدوية المفردة، لابن وافد	٧٦
ـ كتاب الأربعين في فضل الرحمة والراحمين، لابن طولون	٦٥
ـ الارتفاق في مسائل من الاستحقاق، للتدلاوي	٤٧، ١٣٦
ـ إرشاد السالك إلى أشرف المسالك، لابن عسكر	٧٣
ـ الازدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار، للسيوطي	١٠٧
ـ أسرار الحكماء، لياقوت المستعصمي	١٤
ـ إصلاح المساجد من البدع والعوائد، لجمال الدين القاسمي	١١٣
ـ إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس، للصميلي	١٠٢
ـ إعتاب الكتاب، لابن الأبار	٦٥
ـ الإعلام بحدود قواعد الإسلام، للقاضي عياض	٧٣
ـ الإعلام بقواطع الإسلام، لابن حجر الهيتمي	١٣٥
ـ إعلام الساجد بأحكام المساجد، للزركشي	٩٨
ـ الإغفال، لأبي علي الفارسي	١٢٢
ـ الاقتصاد في الاعتقاد، للجماعيلي	١٤
ـ الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى الأنساب والألقاب، لابن ماكولا	٩٠
ـ الأم، للشافعي	١٣
ـ إنارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر، للبقاعي	١١٤
ـ أنباء نجباء الأبناء، لابن ظفر الصقلي	١٤٠
ـ انتخاب السلفي، من أصول كتب الشيخ أبي الحسن الطيوري	٨١
ـ الانتصارات الإسلامية، للطوفي الصرصري	١١٩
ـ الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، لابن منير الإسكندراني	١٠٠
ـ انتهاز الفرص في الصيد والقنص، للناشري	٢١
ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، لأبي اليمن العليمي	١٣٤
ـ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، للمرداوي	١٢٥
ـ إنفاق المال في مرضاة الله المتعال، للبرني	٣٨
ـ إيجاز التعريف في علم التصريف، لابن مالك	٢٠
ـ الإيضاح العضدي، لأبي علي الفارسي	١٢١

عنوان الكتاب الصفحة

- إيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتك، لمرتضى الزبيدي ٩٨

(ب)

- البحر المحيط، لأبي حيان النحوي ٤٣
- البحور الزاخرة في علوم الآخرة، للسفاريني ١١٠
- البخلاء، للجاحظ ٢٣
- البخلاء، للخطيب البغدادي ١٤
- بدائع البدائه، لابن ظافر الأزدي ٩٧
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس الحنفي ١٥
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني ١٢٥
- البديع، لابن المعتز ١٣٣
- برد الأكباد عند فقد الأولاد، لابن ناصر الدين الدمشقي ٦٦
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٩٢
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي ٩٦
- البلدانيات، للسخاوي ..... ٨٨، ١٤٣

(ت)

- تاج التراجم، لابن قطلوبغا ٨٨
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ١٤
- تاريخ الخلفاء، للسيوطي ١٠٦
- تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر ٢٧
- تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة ١١٧
- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة ١١٧
- التبرّي من معرّة المعرّي، للسيوطي ٣٣
- تحبير التيسير في القراءات العشر، لابن الجزري ١٢٤
- تحسين القبيح وتقبيح الحسن، للثعالبي ١٣٣
- التحفة الاثني عشرية، لشاه عبدالعزيز بن أحمد الدهلوي ١١٩
- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، لابن أبي الربيع الغرناطي ١٤٥

عنوان الكتاب	الصفحة
ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لابن بطوطة	١٤٥
ـ التخريج لصحيح الحديث عن الشيوخ الثقات، للبرقاني	٧٦
ـ التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب	٥٤
ـ التذكار في أفضل الأذكار، للقرطبي	٧٠
ـ التذكرة الحمدونية، لابن حمدون	٦٧
ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي	٤٣
ـ الترغيب والترهيب، للمنذري	٢٨
ـ تشويق الخلان ، للسفاطوني	٦٢
ـ تطهير الجنان واللسان عن الخوض والتفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان ...	١٢٠
ـ التعليق الممجد، للكنوي	٣٧
ـ تفسير الخازن = لباب التأويل	
ـ تفسير الطبري = جامع البيان في تفسير القرآن	
ـ تفسير غريب الحديث، لعبداللطيف البغدادي	٨٢
ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير	٧٤
ـ تفسير القرطبي	٧٠
ـ تقريب الوصول إلى علم الأصول، لابن جزي الكلبي	٧٤
ـ تمكين المد في (آتى) و(آدم) وشبهه، لمكي القيسي	١٢٢
ـ تلبيس إبليس، لابن الجوزي	٥٠
ـ تهذيب الأسماء واللغات، للنووي	٩٥
ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني	٨٢
ـ تهذيب اللغة، للأزهري	٤٨
ـ ... التوابين، لابن قدامة المقدسي	٩٦
ـ توجيه إعراب أبيات ملغزة الإعراب، للرماني	١٩
(ج)	
ـ الجامع الأزهر في حديث النبي الأنور، للمناوي	٧٧
ـ جامع الأنوار في مناقب الأخيار، للبندينجي	٢٩
ـ جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري	٦٩

عنوان الكتاب	الصفحة
ـ **الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل الهندسية**، لابن البزاز الجزري	١٤٦
ـ **جامع العلوم والحكم**، لابن رجب الحنبلي	٨٠
ـ **الجامع الكبير**، لمحمد بن الحسن الشيباني	١٤٠
ـ **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، لأبي الخطاب القرشي	٤٧
ـ **الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح**، لابن تيمية	١٢٠
(ح)	
ـ **حجة الله البالغة**، لشاه ولي الله الدهلوي	٧٢
ـ **حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع**	٦٤
ـ **حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء**، للقفال الشاشي	٤٢
ـ **الحماسة البياسية**، للبياسي	٩٧
ـ **الحنين إلى الأوطان**، للجاحظ	٥٨
ـ **حياة الحيوان الكبرى**، للدميري	١٢٨
ـ **الحيدة**، للكناني	١١٦
ـ **الحيطان**، للمرجي الثقفي	٧٦
(خ)	
ـ **الخطط المقريزية** = **المواعظ والاعتبار**	
ـ **خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل**، للبخاري	١١٧
(د)	
ـ **درء تعارض العقل والنقل**، لابن تيمية	١٤
ـ **درر الحكام في شرح غرر الأحكام**، لملا خسرو	١٤٤
ـ **درر العبارات وغرر الإشارات في تحقيق معاني الاستعارات**، للحموي	٣٥
ـ **الدرة المضيَّة في السيرة النبوية**، للجماعيلي	٤٦
ـ **دليل الطالب على أرجح المطالب**، للقنوجي	٣١

عنوان الكتاب الصفحة

(ذ)

- الذخيرة، للقرافي ..... ٦١، ٨٩
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني ١٠٠
- ذم الهوى، لابن الجوزي ٢٨

(ر)

- رائق التحلية في فائق التورية، لابن زرقالة ٩٦
- رحلة ابن بطوطة = تحفة النظار
- الرسالة القشيرية، لأبي القاسم القشيري ١١٨
- رسالة الملائكة، لأبي العلاء المعري ٣٢
- رشف النبيه من ثغر التشبيه، لابن أبي عصرون ٣٦
- الرعاية الصغرى، للنمري ١٦
- الروض الأُنف، للسهيلي ٧٩
- ... الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، لأبي شامة ١١٠
- الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، لياسين الخطيب ١٣٦
- رياض الصالحين، للنووي ٧٠

(ز)

- الزهد والرقائق، لابن المبارك ١٣
- الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، لابن سمّاك ٥٥
- زهرة الآس في بناء مدينة فاس، للجزنائي ١٤
- الزيادات، لمحمد بن الحسن الشيباني ٧٥

(س)

- السر المصون على كشف الظنون، لجميل العظم ٣٤
- سواطع الإلهام، لأبي الفيض الأكبرآبادي ١٣٨
- السيرة النبوية، لابن هشام ١٣
- السيف المسلول على من سب الرسول ﷺ، للسبكي ١٢٠

عنوان الكتاب	الصفحة
ـ السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، للشوكاني	١٣١

(ش)

ـ الشاطبية = حرز الأماني	
ـ شرح على متن الآجرومية للصنهاجي، للكفراوي	٤٤
ـ شرح قصيدة ابن عبدون، لابن بدرون	٣٣
ـ شرح قصيدة أبي مزاحم الخاقاني، لأبي عمرو الداني	٩٤
ـ شرف المصطفى ﷺ، للخركوشي	٩٣
ـ شرح معاني الآثار، للطحاوي	١١٨
ـ شعب الإيمان، للبيهقي	٨٩
ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم .. ٤٦،	٥١
ـ الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، لطاش كبري زاده	٩٦
ـ الشكوى والعقاب، للثعالبي	١٣

(ص)

ـ صحيح مسلم بشرح النووي	٨٣
ـ صرَّة الفتاوى، للساقزي	٩٢
ـ صفة النفاق ونعت المنافقين، لأبي نعيم الأصبهاني	٥٣
ـ صلة الناسك في صفة المناسك، لابن الصلاح	٩١
ـ صيد الخاطر، لابن الجوزي	٥٩

(ط)

ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، للأدفوي	٦٤
ـ طبقات الأولياء، لابن الملقن	٩٥
ـ الطبقات السنية في تراجم الحنفية	٩٢
ـ طبقات الشافعية، للمصنف	٥١
ـ الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد	١٣
ـ الطراز في شرح ضبط الخراز، للتنسي	٨٤

عنوان الكتاب الصفحة

- طراز المحافل في ألغاز المسائل، للأسنوي ١٤١
- طرح المدر لحل الآلاء والدرر، ليوسف الشربيني ١٣٨

(ع)

- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن القيم ٤٦
- العصا، لأسامة بن منقذ ٩٤
- عقائد الثلاث والسبعين فرقة، لليمني ٤٩
- العقد الثمين في بيان مسائل الدين، للسويدي ٥٨
- عقلاء المجانين، لابن حبيب النيسابوري ١٣٦
- العلل ومعرفة الرجال، لابن حنبل ١٣
- عمدة الأحكام من كلام خير الأنام، للجماعليي ٢٨
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي ٧٩
- عمدة الطالب في شرح نيل المآرب، للبهوتي ٧٤
- عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران، للبقاعي ٤٦
- عنقود الزواهر، للقوشجي ٢٩
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة ٩١
- عيون الأخبار، لابن قتيبة ٥٣

(غ)

- غاية المراد في معرفة إخراج الضاد، لابن النجار ١٢٤
- غاية المقصود لمن يتعاطى العقود، للديربي ٢٩
- غذاء الأرواح بالمحادثة والمزاح، لمرعي المقدسي ١٤١
- غرر الفوائد المجموعة في بيان ما وقع في صحيح مسلم من الأسانيد المقطوعة، لرشيد الدين العطار ١٣٠
- الغنية لطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف، للجيلاني ٢٧

(ف)

- فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، لابن عربشاه ..... ١٠٣، ١٣٩

عنوان الكتاب	الصفحة
ـ الفتاوى السراجية	٣١
ـ الفتاوى العالمكيرية	٣٢
ـ فتاوى قاضيخان	٣٢
ـ الفتاوى الهندية = الفتاوى العالمكيرية	
ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني	٧١
ـ الفتح الرباني في فتاوى الشوكاني	٣١
ـ الفتح في تأويل ما صدر عن الكمَّل من الشطح، للشعراني	٨٠
ـ الفصل في المِلَل والأهواء والنحل، لابن حزم الظاهري	٨٤
ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ، لابن كثير	٤٦
ـ فضائل الأعمال، لضياء الدين المقدسي	٤٢
ـ فضائل الشام، لابن رجب	٦٦
ـ فضل العطاء على العسر، لأبي هلال العسكري	٢٠
ـ فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، لابن المرزبان المحولي	١٢٦
ـ فهرسة ابن خير الإشبيلي	٦١
ـ الفوائد البارزة والكامنة في النعم الظاهرة والباطنة، للسيوطي	٣٤
ـ الفوائد الغياثية، للإيجي	٢٠
ـ في فصاحة بلاغة القرآن	٣٧
(ق)	
ـ القانون في الطب، لابن سينا	٢٤
ـ قرع السياط في قمع أهل اللواط، للسفاريني	١١٥
ـ قرة عين العابد بحكم فرش السجاجيد في المساجد، لإلياس زاده	١١١
ـ ... القصاص والمذكرين، لابن الجوزي	١٢٩
ـ قطف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي	٧٧
ـ القناعة، لابن السني	١٤
ـ القواعد، لابن اللحام	٤٧
(ك)	
ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزري	٩١

عنوان الكتاب	الصفحة
ـ الكامل في اللغة والأدب، للمبرد	٨٥
ـ الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته، للقرطبي	٤٣
ـ (كتب ابن أبي الدنيا)	١٣
ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري	٢٦
ـ كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار، للعماد الأقفهسي	١٢٣
ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة	٩٢
ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي	١٦
ـ كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، للحصني	٨٢
ـ كليلة ودمنة	١٠٣
ـ الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، لنجم الدين الغزي	١٣٥

(ل)

ـ لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن	٧٨
ـ لطائف الأخبار وتذكرة أولي الأبصار، للمحسّن التنوخي	٨٦
ـ لطائف المنن، للشعراني	٤٠
ـ اللطف في الوعظ، لابن الجوزي	٩٤
ـ لفتة الكبد في نصيحة الولد، لابن الجوزي	٥٥
ـ لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، للشعراني	٥٥، ١٣٥

(م)

ـ مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، للولالي	٣٩
ـ المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، للدمياطي	١٥
ـ المتفق والمفترق، للخطيب البغدادي	٤٩
ـ المجتبى من المجتنى، لابن الجوزي	١٥
ـ المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، لابن حجر العسقلاني	٦٨
ـ المحاضرات، للحسن اليوسي	١٨
ـ المحاضرات والمحاورات، للسيوطي	٨٧
ـ المحاورة الصلاحية في المحاجاة الاصطلاحية، لابن الدريهم	٨٦

عنوان الكتاب	الصفحة
ـ المختار من نوادر الأخبار، للأنباري	٩٨
ـ المختصر الكافي، للحاكم الشهيد	٨٢
ـ مختصر الكامل في الضعفاء، للمقريزي	٨٣
ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم	٧١
ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي	٢٩
ـ المدهش، لابن الجوزي	٩٤
ـ مراقي الجنان بالسخاء وقضاء حوائج الإخوان، لابن عبدالهادي الحنبلي	٧٢
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي	١٠٨
ـ المزهر في علوم اللغة، للسيوطي	١٣٨
ـ مسالك الحنفا إلى مشارع الصلاة على النبي المصطفى ﷺ، للقسطلاني	٤٣
ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري	٧٥
ـ المستصفى من علم الأصول، للغزالي	٦٩
ـ المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي	٨٧
ـ المستظهري، للغزالي	١١٨
ـ مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام، للنحاس	٦٤
ـ المطالب القدسية في أحكام الروح وآثارها الكونية، لمحمد حسنين مخلوف	١١٢
ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، للفتح بن خاقان	٦٠
ـ مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، للجبرتي	١١٠
ـ معجم السفر، لأبي طاهر السلفي	٨٨، ١٤٣
ـ معرفة الصحابة، لأبي نعيم الأصبهاني	١٠٦
ـ معرفة ما يجب لآل البيت النبوي من الحق على من عداهم، للمقريزي	٩٣
ـ معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين، لابن الأعرابي	٧٨
ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري	٧٩
ـ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، للشربيني الخطيب	٨٠
ـ المقاصد، للنووي	٤٣
ـ مقالة في البادزهر الحيواني، لمدين القوصوني	١٢٦
ـ مقامات الحريري	٢٤
ـ مقامات الزمخشري	٤٠

عنوان الكتاب	الصفحة
ـ مقدمة ابن خلدون	١٣٤
ـ المقصد المحمود في تلخيص العقود، للجزيري	٨٤
ـ المقلق، لابن الجوزي	٥٤
ـ المقنع، لابن قدامة المقدسي	١٥
ـ مكارم الأخلاق، للخرائطي	١٣
ـ المكافأة وحسن العقبى، لابن الداية	٦٣
ـ الملل والنحل، للشهرستاني	١١٠
ـ منازل الأئمة الأربعة، للسلماسي	١٢٣
ـ مناقب الإمام أحمد بن حنبل، لابن الجوزي	٩٥
ـ المنتخب من زوائد البزار على الكتب الستة ومسند أحمد، لابن حجر العسقلاني	٨٢
ـ المنتقى من مكارم الأخلاق، لأبي طاهر السلفي	٨١
ـ المنن الكبرى = لطائف المنن	
ـ المنهاج في ترتيب الحجاج، لأبي الوليد الباجي	١٣٤
ـ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي	١٢٢
ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، للمقريزي	٨٦، ٩٧
ـ ميزان المعاشرة وبين المباشرة، لمجهول	٨٧

(ن)

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي	١٧، ١٠٩
ـ نزهة الأبصار في فضائل الأنصار، للوادي آشي	٧٦
ـ نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، للمكي الموسوي	٨٨
ـ نزهة النفوس في بيان حكم التعامل بالفلوس، لابن الهائم	١١١
ـ النشر في القراءات العشر، لابن الجزري	٧١
ـ نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، لليافعي	١٣١
ـ النصيحة الولدية، لأبي الوليد الباجي	٥٨
ـ النكت الأثرية على الأحاديث الجزرية، لابن ناصر الدين الدمشقي	١٢٥

عنوان الكتاب	الصفحة
ـ النكت الظريفة في ترجيح مذهب أبي حنيفة، للبابرتي	١٠١
ـ نواسخ القرآن، لابن الجوزي	١٢٣
ـ النواقض لظهور الروافض، لميرزا مخدوم	١١٨
ـ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، للعيدروسي	١٠٧
ـ نور الطرف ونور الظرف (كتاب النورين)، للحصري	٢٥
(هـ)	
ـ الهبات السنية العلية على أبيات الشاطبية الرائية، للقاري	٤٣
ـ هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة، لابن حجر العسقلاني	١٠٦
ـ هدية الإخوان في شجرة الدخان، للزبيدي	١٣١
ـ هدية الصعلوك شرح تحفة الملوك، للزيلعي	٢٩
ـ الهوامل والشوامل، لمسكويه	٣٢
(و)	
ـ الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين، لمغلطاي	١٤٢
ـ الوافي بالوفيات، للصفدي	١٠٨
ـ وسيلة الظفر في المسائل التي يُفتى فيها بقول زفر	٨٨
(ي)	
ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، للثعالبي	٨٥
ـ يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار، للقنوجي	١٣٦

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
تمهيد	٧
عدمُ ذكر السبب	١٣
أكثر من سبب!	١٦
الإهداء	١٩
استجابة طلب أو سؤال	٢٣
أجوبة مسائل	٣١
التحدِّي	٣٣
البحث والتحرِّي	٣٥
الرؤيا	٣٧
الشكر والاعتراف بالفضل	٣٩
طلب الأجر والثواب من اللَّه	٤٢
الحاجة والأهمية والضرورة	٤٥
الإحاطة والاستبصار والتحذير تجنباً للوقوع في الخطأ والزيغ	٤٨
النصيحة والإصلاح والتربية وبثُّ الوعي	٥٢
التأثُّر والشعور بالمسؤولية	٥٧
قيد العلم لعدم النسيان أو الضياع	٥٩
نشر العلم والخوف من آثار كتمه	٦١
إحياء علم أو فضيلة	٦٣

الموضوع	الصفحة
نشر الأمن والطمأنينة والمواساة	٦٦
حبُّ العلم والتأليف	٦٧
الانشغال بأفضل العلوم وأهم الأعمال	٦٩
التعليم	٧٣
تكملة نقص.. واستدراك ما فات	٧٥
التوضيح والبيان	٧٨
الانتخاب والاختصار والوسطية	٨١
جمع ما تفرَّق	٨٥
الأعمال الجامعة والموسوعية للاستغناء بها عن غيرها	٨٩
حبُّ الشيء والإعجاب به: هواية وتسلية	٩٣
الانتصار للمبدأ والمذهب	١٠٠
الأغراض والخفايا	١٠٣
الفائدة والانتفاع	١٠٥
العبرة	١٠٨
بيان حكم الوقائع الجديدة (النوازل)	١١١
التصدّي للمنكرات والبدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١١٣
شبهاتٌ وردودٌ ودفعُ مطاعن والتصدّي للأفكار الهدّامة	١١٦
نقد وتمحيص وتصحيح أخطاء	١٢١
حسم الخلاف	١٢٨
موضوع أو تصنيف جديد	١٣٣
أسلوبٌ جديد	١٣٨
إثارة النفس وتحريك الفكر وترويح البال (الإثارة والتشويق)	١٤٠
التجارب والرحلات والاكتشافات والمذكرات	١٤٣
الخاتمة	١٤٧
فهرس الكتب	١٥١
فهرس الموضوعات	١٦٥